ضرورة القراءة التراثية

بقلم:
أحمد مظهر سعدو

بدأ الاهتمام بالتراث في العصر الحديث وذلك كرد فعل على قوة التغلغل الاوروبي في المنطقة العربية، من هذا المنطلق بدأ الكثير من المفكرين في محاولة الاهتمام بالتراث العربي، وذلك من اجل ان يكون لهم خلفية يتكئون عليها دفاعاً عن انفسهم أمام هذه الغزوة. ولقد كانت حملة نابليون الصدمة الأولى التي أدت الى بدء الاهتمام بالتراث. ومن هنا فإن عملية بداية اهتمامنا بالتراث والتي يسمونها عصر النهضة في القرن الماضي كانت نتيجة لردة فعل اما ان نقبل من التراث ما هو جيد من اجل ان نقوي شعورنا ونأخذه ومعنى هذا أننا سنقول هكذا كنا، ومعنى اننا فشلنا اليوم فذلك يغطي فشلنا اليوم، اي عملية فشلنا سوف يغطيها اننا كنا في يوم اقوياء وسوف نعود كذلك(١). وحقيقة فإنه «لا سبيل مثلاً لثورة ثقافية عميقة دون ان تشمل قضية التراث بإعادة نظر جذرية تتناول كافة المحرمات التي عانى الفكر العربي من تجاهلها أمداً طويلاً»(٢).

تعريف التراث

يعرف الدكتور تيزيني التراث من خلال ربطه بالتاريخ فيقول: «التاريخ هو اللحظة المنقضية بجملة جوانبها المادية والنظرية الفكرية والروحية وهو ضمن هذا الفهم يشكل المادة التاريخية التي يسلط المؤرخ مبضعه عليه، أما التراث: فهو تلك اللحظة التاريخية في امتدادها وديناميتها، ولذلك فإن البحث التراثي يقوم على اختيار الحدث او الجانب التراثي بهدف دمجه في جسد اللحظة المعاصرة»(٣).

أما الدكتور غالي شكري فيبين «أن التراث في جوهره ليس مجموعة من المسلمات او البديهيات بل هو مجموعة من الاجابات على اسئلة طرحها الوجود

على السلف

والدكتور محمد عمارة يحاول الاجابة عن فهمه للتراث بقوله: «إن التراث بوصفه ابداع عبقرية الأمة في عصورها السابقة فإن له استمرارية تؤثر في حاضر الأمة ومستقبلها، فالتراث ليس واقعاً تاريخياً مضى وانقضى، كما هو الحال مع وقائع التاريخ»(٥).

وها هو الدكتور علي زغل يعتبر ان التراث مرادف للحضارة اذ ان ادواردتيلمر ـ على رأيه ـ يرى أن الحضارة بمعنى التراث الاجتماعي، هي ذلك الكل المركب الذي يشمل المعرفة، والمعتقدات والعادات والقوانين وكل ما يكتبه الفرد بصفته عضواً في المجتمع. إن التراث ليس الماضي فقط وإنما يشمل الماضي والحاضر وتطلعاتنا الى المستقبل ايضاً، ان افكارنا التي نريدها للمستقبل جزء أساسي من تراثنا»(٦).

ويقول الجابري ان التاريخ هو صيرورة حياة البشرية بمختلف جوانبها ونواحيها أما التراث فهو ما يقابل التاريخ في لحظة معينة من الصيرورة التاريخية(٧).

لماذا طرح قضية التراث الآن؟

لما كانت مجتمعاتنا العربية قد وصلت الى مرحلة من الانحدار لم يسبق لها مثيل نتيجة لعدة اسباب قد تجمعت لتساهم في عملية التخلف الحضاري هذه، كان لا بد من محاولة تلمس لواقعها والسبيل المؤدي الى مستقبل اكثر اشواقاً يستطيع فيه الانسان العربي ان يأخذ مكانه بين الأمم. ولقد اجمع معظم البحاثة على ان مسألة التراث جوهرية لإعادة النظر بها بمنظور واعٍ ومفتوح وقادر على مداواة الجروح. ولقد كان طرح قضية التراث ـ على رأي البعض ـ مشوباً غالباً بضحالة بالاستبصار والمسؤولية السياسية والاجتماعية مع ان فيها الكثير من الحماسة والتوقعات المشروعة وقد عوملت هذه القضية من كثير من المفكرين والمثقفين العرب كما تعامل الخالة زوجة الاب الغيورة السيئة ـ اطفاله، وابدو وجه الاعتراض هنا على مثل هذا النمط يتمثل في انه يضحي بالعنصر المعرفي من الحقيقة التراثية في سبيل العنصر النفعي»(٨). ويمكن ان نرى في بعض النقاط مبررات تجلعنا نطرح قضية التراث التي بإمكاننا أن نرى فيها

ضرورة المستقبل:

إن بناء المستقبل هو نتاج التصارع والتعامل بين كل ما هو حاضر فينا سواء كان أصله من الماضي من التراث.. أو من الفكر العالمي المعاصر، لذلك فإنه لا يمكن أن نبني مستقبلنا من تراثنا بمفرده ولقد كان هذا ممكناً في الماضي عندما كنا نحن نمثل ثقافة العالم في عصرها ولم يكن هناك غرب او حضارة تقدمتنا بأشواط، فعندما تكون الحضارة هي حضارة العصر، يمكننا ان نقول انها تبني مستقبلها من تراثها. وبما ان الحاضر الذي نعيشه ليس هو حاضرنا نحن بل حاضر الغرب ويمثل امتداد الغرب فينا، فأعتقد ان اي مستقبل سيكون لنا، هو بالضرورة مستقبل يجمع الطرفين معاً. والذين يقولون ان التراث هو الذي عاق التقدم فلنسألهم هل يمكن حدوث تقدم بدون ماضٍ ومن لا شيء؟ وما هو التقدم؟ انه نتيجة لأشياء ماضية تفاعلت وتصارعت. فالتقدم لا يمكن ان يحدث من الصفر، الصفر يبقى صفراً باستمرار، التقدم هو انتقال من شيء الى شيء من مرحلة الى مرحلة، الأولى نعتبرها دنيا والثانية نعتبرها عليا، وتقدم الامة هو صيرورة تاريخ الامة اوحركة الامة، والامة نفسها شيء موجود تاريخياً، الأمة ليست تراثاً

فالتراث يشكل جزءاً من هوية الأمة»[٩].

وهذا التراث قد يكون مادياً كالآثار والنقوش والتقاليد والعادات والملابس وقد يكون فكرياً، وهذا ما نريده لمستقبلنا وما يبقى في ذات الانسان أو ما يدخل كجزء مكون لهويته هو تراث وانا اعتبر ان التراث حضور للخلف في السلف، وطبعاً التراث يختلف من حضارة الى اخرى ومن عصر الى عصر فبالنسبة للأوروبي مثلاً اذا سمع كلمة تراث فإن ذهنه ينصرف في الغالب الى ما يوجد في المتحف ولا يخطر بباله الجانب الفكري، والتراث بالنسبة لمستقبلنا شيء آخر، فهذه الكلمة تحيلنا مباشرة الى ظاهرة ربما تتعلق بالوعي اكثر من الواقع، ربما تعبر عن نوع من شقاء الوعي نوع من الشعور بالفراغ، او بالهوة ما بين الصورة التي لدينا عن الماضي او عن فكرنا الماضي وهي صورة ممجدة على كل حال وبين واقعنا ومستقبلنا.. وهذا ايضاً مشروط بالوضعية الحاضرة، فالظروف العربية الراهنة تعاني من الاحباط والفراغ، وعندما يعاني الانسان الاحباط او الفراغ فإنه يلتفت الى الوراء ليحاول ان يستند الى ما يحفظه او يمنعه من السقوط فنحن نذكر في الستينات عندما كان الوعي العربي يتجه الى الامام والى المستقبل القضايا التي تواجهه، كان وقع التراث بالنسبة لنا وقعاً خفيفاً وكانت المشكلة مطروحة بالطبع لكن ليس بالشكل الذي هي عليه اليوم[١٠].

تحديد التراث

يؤكد نظام العباسي على «عدم انتقاء التراث لأنه لا ينتقى بل يجب ان نلتزم فيه سلباً او ايجاباً، أما كيف نعالج ذلك؟ فنأخذ الأشياء الايجابية من اجل ان نطورها والأشياء السلبية حتى نعرف كيف حصلت، محاولة تجنبها مسقبلاً»[١١].

أما الدكتور كمال ابو ديب فيحدد ذلك بمثاله المشخص التالي: «إنني حين انظر الآن في هذه اللحظة الى القمر، وأنا أجلس هنا فأنا انظر الى القمر لا بوصفي فرداً منعزلاً قائماً بذاته، ووراءه بألف سنة يقبع شيء اسمه التراث العربي، وإنما أنظر الى القمر في هذه اللحظة وانا عربي يمتد تاريخي الى ألفي سنة تقريباً، أي أني الآن محرقة التطور التاريخي المستمر الذي يشكلني في هذه اللحظة فيجعلني انظر الى القمر وانا ارى فيه هضاباً ووديانا او امريكياً يسير على سطحه»[١٢].

واذا ما مررنا على الدكتور غالي شكري فإنا نلقاه محدداً للتراث على انه «ليس وحدات ثقافية منفصلة وإنما هو شريان حي متصل بوعي او بغير وعي في دمائنا، والتراث ليس هو الطابع او الخصائص القومية وإنما هو اشمل من ذلك وأعمق. ذلك ان الحضارة الإنسانية دورات جدلية لا تنتهي وبالتالي فإنها تستوعب ابقى مافي تراثات الشعوب لتحيلها مع المنجزات الجديدة في العالم الى تراث انساني والتراث ليس هيكلاً من المعاني والقيم المنسقة المتكاملة، إنما هو تعبير اجتماعي تتباين فيه الافكار والمشاعر من طبقة الى اخرى. ثم ان له ثلاث وجوه وجه طبقي وقومي وإنساني. وهذه تحد وتحل المشكلات كلمارفعت الرجعية شعار التراث في وجوهنا على النحو التالي:

١ ـ إن طبقية التراث سوف تعلمنا انه ليس كل ما وصلنا من الأسلاف او من غيرهم ينبغي استلامه لدفع حركة التقدم التاريخي لشعوبنا، وإنما علينا أن نختار ادراك نافذ بين القيم التي تعجل بهذا التقدم. والقيم التي تعرقل، إنهم مثلاً حين يقولون لنا إن الغزالي جزء من تراثنا فهذا صحيح ولكن الصحيح ايضاً ان الغزالي كان تجسيداً فلسفياً لأكثر

الطبقات الرجعية تخلفاً.

٢ - إن قومية التراث هي الاخرى تحتاج الى مناقشة، فالقومية التي يريد لنا البعض ان نسكنها باسم العروبة والاسلام، لا علاقة حقيقية بينها وبين الطابع القومي للتراث، ذلك ان تجاهل السياق التاريخي لتراثنا يحرمنا الكثير من حلقات ثمينة في هذا السياق. إن على من يتبجح في وجه المرأة العربية المعاصرة باسم التراث ليسجنها في حريم الجواري، ان يرجع الى تشريعات حمورابي مثلاً ليرى ان المرأة قد نالت يوماً في تراثنا من الحقوق مالم تنله المرأة الأوروبية بعد.

٣ - إن إنسانية التراث عنصر خطير في تكوين النظرة اليه والى المجتمع فالقول مثلاً ان الحضارة السومرية قد انتهت او ان الحضارة العربية الزاهرة قد اضمحلت وتلاشت هو قول بعيد عن الصواب تماماً، الحضارة الانسانية في خط سيرها ترتد وتنتكس احياناً ولكنها لا تموت بل هي تتقدم دوماً للأمام رغم كل الانكسارات واذا تخلى شعب عن حضارته او ان هذه الحضارة تخلت عنه فإنها لا تسقط بل هي تأخذ مساراً آخر في مكان ملائم لتطورها»[١٣].

الرد على الفكر اللاتراثي:

ولقد جاء طرح قضية التراث وضرورته كرد على الفكر الرجعي عموماً وبعض النزعات التي تعالج الموضوع من زوايا لا تراثية او متحايلة على التراث، وها هو الدكتور تيزيني محاولة منه لتقديم البديل التراثي يستعرض بعض تلك النزعات التي تمثل الكوابح والمعوقات الاساسية على طريق الوصول الى موقف علمي متماسك من قضية التراث.

١ - النزعة السلفية:

إن المسألة العقدية في هذه النزعة تكمن في اعتبار اللحظة الماضية المنطلق الانطولوجي والمعرفي، منطلق الحلول للحاضر والمستقبل ومنطلق البحث العلمي في هذه الحلول، انها تكمن في اعتبار تلك اللحظة الغاية الدنيا والقصوى للحياة الانسانية، ولقد كانت في بدايتها كأحد الردود الفكرية على الحركة الشعوبية وعلى الانهيار الحضاري الغربي الاسلامي»[١٤]. وهي بصفتها الايدلوجية الرجعية دعوة ايديولوجية الى الانكفاء الى الاصول الدينية الاولى في صيغتها النصية الوثوقية. ثم هي احد مظاهر النمو القومي العربي الحديث المناهض للتدخل الاجنبي الاقطاعي والاستعماري بشكليه القديم والحديث»[١٥] وتأكيداً على أهمية اعاقية النزعة السلفية فقد تناولها الدكتور الجابري حينما أكد ان «التيار السلفي انشغل اكثر من غيره بالتراث وإحيائه واستثماره في اطار قراءة ايديولوجية سافرة، أساسها اسقاط صورة المستقبل المنشود. المستقبل الايديولوجي على الماضي، ثم البرهنة، انطلاقاً من عملية الاسقاط هذه على ان ما تم في الماضي يمكن تحقيقه في المستقبل. لقد لبس هذا التيار اول الامر لباس حركة دينية وسياسية اصلاحية ومتفتحة مع الافغاني وعبده حركة تنادي بالتجديد وترك التقليد، ان ترك التقليد يكتسي هنا معنى خاصاً انه «إلغاء» كل التراث المعرفي المنهجي والمفهومي المتحدر الينا من عصر الانحطاط، والحذر في ذات الوقت من السقوط فريسة، للفكر العربي - أما التجديد فيعني بناء فهم جديد للدين عقيدة وشريعة انطلاقاً من الاصول مباشرة والعمل على تحيينه اي جعله معاصراً لنا وأساساً لنهضتنا وانطلاقتنا. انها السلفية الدينية التي رفعت شعار الاصالة والتمسك بالجذور والحفاظ على الهوية.. الأصالة والجذور والهوية مفهومة

على انها الاسلام ذاته، الاسلام الحقيقي لا اسلام المسلمين المعاصرين ان مثل هذه تكون مشروعة فقط عندما تكون جزءاً من مشروع للقفز والطفرة، لكن الذي حدث عند السلفية هو العكس تماماً، لقد اصبحت الوسيلة غاية فالماضي الذي اعيد بناؤه بسرعة قصد الارتكاز عليه بـ«النهضة» اصبح هو نفسه مشروع النهضة هكذا اصبح المستقبل يقرأ بواسطه الماضي، ولكن لا الماضي الذي كان بالفعل، بل الماضي كما ينبغي ان يكون، وبما أن هذا الاخير لم يتحقق إلا على صعيد الوحدات، صعيد الحلم، فإن صورة المستقبل الآتي ظلت هي نفسها، صورة المستقبل الماضي والسلفي يحيا هذه الصورة بكل جوارحه، ليس فقط كصورة رومانسية بل كواقع حي، ولذلك تراه يستعيد الصراع الايديولوجي الذي كان في الماضي وينخرط فيه منافحاً ومناضلاً، لا يكتفي بخصوم الماضي، بل يبحث له عن خصوم في الحاضر والمستقبل. فالقراءة السلفية للتراث قراءة لا تاريخية وبالتالي فهي لا يمكن ان تنتج نوع واحد من الفهم للتراث هو الفهم التراثي للتراث.. التراث يحتويها وهي لا تستطيع ان تحتويه لانها: التراث يكرر نفسه، السلفية الدينية تصدر في قراءتها من منظور ديني للتاريخ، يجعل التاريخ ممتداً في الحضار، منبسطاً في الوجدان، يشهد على الكفاح المستمر والمعاناة المتواصلة من اجل اثبات الذات وتأكيدها، ولما كانت الذات تتحدد بالايمان والعقيدة فلقد جعلت من العامل الروحي العامل الوحيد المحرك للتاريخ، أما العوامل الاخرى فهي ثانوية او تابعة او مشوهة للمسيرة»[١٦].

٢ ـ نزعة معاصرة: احتلت هذه موقعاً رئيسياً ضمن المسائل التي أثيرت في نطاق قضية التراث ولقد نشأت مضمنة في سياقها عنصرين هما العدمية التراثية والتجديدية[١٧].

٣ ـ النزعة التلفيقية: وقد مثلت على رأي تيزيني محاولة للف والدوران على التراث واللحظة والمعاصرة في وقت واحد والوصول في نهاية المطاف الى تركيب هو في حقيقة الامر ليس اكثر من صيغة تعسفية تجميعية[١٨].

٤ ـ النزعة التحييدية: لقد مارست هذه النزعة تأثيراً سلبياً بالغاً على قضية التراث. وفكرتها هي طرح مشكلات التراث بعيداً عن زحمة الاحداث الراهنة، والتصدي لذلك. بعيداً عن الاطار السياسي ورفض اي موقف ايديولوجي نظري لفهم التراث بحيث تكون اللا أدلجة هي البديل. وقد اظهرت هذه النزعة ثلاث اتجاهات هي الاكاديمية والوثائقية واللا أدلجة[١٩].

٥ ـ المركزية الاوروبية: فلقد انيطت بها مهمة تقديم الاثباتات التاريخية بأن تاريخ الحضار العقلية الممتازة عموماً ما هو الا تاريخ للبلدان الاوروبية، أما ما قدمته بلدان الشرق فإنه لايخرج عن كونه تجليات ومواقف دينية لا تدخل في الحقل الحضاري[٢٠].

إنه دقة وحساسية المشروع الثقافي الذي نترقب النهوض به في صيغة داخلية تنظمه لا تستطيعان احراز التأثير الكامل على اجهزة المجتمع وبناه دون العودة الى التراث، باعتباره ظاهرة غير معزولة عن عملية التحول المنشود ولكن «العبور الى التراث على جسور الايديولوجيات السياسية المعاصرة خاصة كمحاولات طيب تيزيني وحسين مروة وأدونيس ولو كانت انطلاقة كل واحد من موقف متعارض مع الآخر، فإنه أي هذا العبور أوصلنا الى اسقاطات لفظية ومفتعلة، ساهمت في اخفاء ملامح التراث عن بصيرتنا اكثر مما تفعل اللغويات، وتلك هي عينات عن التأويل الذاتي

الخالص الذي يدّعي ولوجاً الى الموضوع وهو لا يوصل الى أوهام الذات المعاصرة الباحثة عن دعامات من أعماق الماضي»[21]

وفي هذا الاطار لا يمكن ان تميز بين الحي والميت في التراث لأن هذا التمييز يخضعه البعض لعاملين:

١ ـ هو يخضع لحاجتنا نحن ووضعنا المعاصر.

٢ ـ يتحدد من مكانه في السياق التاريخي.

ومبدئياً يمكن القول: التراث هو الميت. هو تراث لأمة انتهى واصبح في الماضي، ولكن هذا الميت فيه حي ميت، والتمييز ما بين الحي والميت فيه ايضاً شيء نسبي فما قد يبدو لنا حياً الآن قد يموت غداً وما قد يبدو لنا الآن ميتاً قد يحيا غداً، ولكن يبقى كما هو بل يستعاد بصورة اخرى تحتفظ بشيء من الماضي، ولكنها تأخذ مضمونها وتحديدها من المستقبل. أما أن أقول هذا حي من التراث وهذا غير حي فهذا كلام غير مسؤول.

علاقتنا بالتراث موضوعياً: يؤكد الجابري على «أن اندماج الذات في التراث شيء واندماج التراث في الذات شيء آخر، أن يحتوينا التراث شيء وان نحتوي التراث شيء آخر.. إن القطعية التي ندعو اليها ليست القطعية مع التراث بل القطعية مع نوع من العلاقة مع التراث، القطعية التي تحولنا من كائنات تراثية الى كائنات لها تراث. اي الى شخصيات يشكل التراث احد مقوماتها، المقوم الجامع بينها في شخصية اعم، هي شخصية في مشكلة المنهج التي تواجه الفكر العربي المعاصر في محاولاته الرامية الى ايجاد طريقة علمية ملائمة للتعامل مع تراثه. إن القارىء العربي مؤطر بتراثه ، بمعنى ان التراث يحتويه احتواء يفقده استقلاله وحريته لقد تلقى القارىء العربي ويتلقى، تراثه، منذ ميلاده كلمات ومفاهيم، كلغة وتفكير كحكايات وخرافات كمعارف وحقائق، كل ذلك بدون نقد، فهو عندما يفكر بواسطته ومن خلاله فيستمد منه رؤاه واستشراقاته مما يجعل التفكير هنا عبارة عن تذكر، لذلك فعندما يقرأ القارىء العربي نصاً من نصوص تراثه يقرأه متذكراً لا مكتشفاً. اجل كل الشعوب تفكر بتراثها، ولكن فرق واسع بين من يفكر بتراث ممتد الى الحاضر ويشكل الحاضر جزءاً منه تراث متجدد يخضع باستمرار للمراجعة والنقد وبين من يفكر بتراث توقف عن النمو منذ قرون، تراث تفصله عن الحاضر مسافة علمية طويلة[22].

وعندما يتكلم الدكتور عادل ظاهر[23] عن المشكلة الاساسية في علاقة الإنسان العربي بالتراث فيخط اضلاعها على ان هذا الانسان:

١ ـ لم يجد تحديد التراث الذي يفترض بنا ان نرتبط به، فقد يكون التراث شيئاً مرتبطاً بمرحلة تاريخية معينة ام الماضي ككل، هل نقصد بالتراث شيئاً سابقاً على الاسلام أو نقصد التراث العربي الاسلامي.

٢ ـ على افتراض اننا حددنا هذا التراث، والسؤال الآن اي مرحلة من مراحل التاريخ يفترض فينا أن نعود اليها. ثم ما هي المعايير التي يفترض ان تستعملها لتقرر ما الذي يجب ان نعود اليه في هذا التراث. من هنا تنشأ العلاقة والفهم المطلوبين بالتراث كمهمة ملقاة على عاتق الامة في هذه المرحلة.

مشكلة التراث وإحياؤه:

يرى مفكرون ان الحقيقة في البحث التراثي كما في البحث العلمي عموماً هي كذلك، اي حقيقة ليس لانها نافعة وانما هي على العكس من ذلك نافعة لانها حقيقة. وهكذا يمكن ان تتبدى لنا وأمامنا مشكلة التراث العربي بجانبه الفكري من حيث هي مركب من القضايا الماضية والراهنة والمستقبلية التي تحرض الباحث على التصدي لها بمبضع العالم والسياسي، او بشكل ادق بمنظار العالم السياسي والسياسي العالم. «وكي نحيي التراث يجب ان نفهم هذا التراث، ان نفهم من نحن؟ ان نعرف لماذا نحن؟ لانها من خلال

هذه المعرفة نستطيع ان نعرف لماذا آل مصيرنا الى ما هو عليه، أما اذا كانت عملية احياء التراث تستهدف إعادة صلتنا بأنماط التفكير والقيم التي سادت بالماضي فهذه المشكلة خطيرة تعود بنا الى مسألة الازدواجية»[٢٤].

والحقيقة فإنه كما يرى عبد الله العروي فإن «تلك الأوزار والسلاسل لن نتحرر منها الا بكسب وعي تاريخي، هذا الوعي سيفتح أعيننا على الواقع لأول مرة، ويمكننا أن نرى أن التراث واللغة وتاريخنا الخاص مواد منفصله عنا، لا نستطيع ان نتصل بها الا عن طريق التحليل والتركيب العقليين، لا عن طريق الحدس والمعرفة المباشرة، وسنكتشف حالاً، او سنعي لأول مرة ذواتنا الحقيقية، المطابقة لمركزها في الوقت الراهن في الآن والمكان»[٢٥]. إن المثقف العربي الثوري يعيش اليوم في بؤس لانه يعيش في مجتمع ليس في مستوى العصر ولن يرتفع عنه البؤس الا اذا عمل على تغيير مجتمعه جذرياً وواقعياً من اجل ان يخرج العرب بعد الخيبة والانتظار من شتائهم الطويل. يقول هيجل: «إننا لا نستوعب التاريخ الا عندما نستطيع ان نرى الحاضر بصورة عامة، كنتيجة لتلك الوقائع التي تمثل حلقتها الاساسية، اخلاق واعمال المشاركين فيها»[٢٦]. وبالفعل فإنه «اذا انتهى ماضٍ جليل الى حاضر ممقوت، يفقد الماضي كثيراً من جلاله بسبب ذلك الاخفاق لا في اعيننا فقط بل في ذاته وماديته ولحمته»[٢٧]. ونحن لا يمكن ان نتفهم التراث الا بعقل جديد، لا بد من اكتسابه الا من العصر الحاضر، ان مجتمعنا المعاصر يعيش في بحر من الاسئلة الجديدة والقديمة، وانساننا المعاصر الجديد بانسانيته حقاً، هو الذي يستطيع ان يقدم جواباً على الأسئلة المطروحة أمامه سواء جاءت الاجوبة القديمة هامشاً ضرورياً أو لم تجيء على الاطلاق.

وحري بنا من خلال هذه القراءات ان نستوعب هذا التفكير التراثي ونجعله مساهمة في المشروع الحضاري الكبير الذي يلج ملحاً على عقل هذه الامة في مرحلة من أشد المراحل تأزماً خصيصاً وهي تعيش أزمتها فهل نستطيع ان نتمسك بالعقلنة والعلمية كنهج وطريق؟ ليمكن عندها ان نأمل بالاستمرارية الديناميكية، ونسمح لأنفسنا بأن نحلم.

الهوامش:

١ ـ د. العباسي نظام ـ ندوة بعنوان التراث الاجتماعي وأثره في تطور المجتمع ـ مجلة العلوم الاجتماعية ـ العدد الثالث ـ المجلد الثاني عشر خريف ١٩٨٤ ـ جامعة الكويت ـ ص (١٩٧-١٩٨).

٢ ـ د. شكري غالي ـ التراث والثورة ـ دار الطليعة ـ بيروت /١٩٧٩/.ص/٢٦/.

٣ ـ تيزيني ـ ص/٢١٧/.

٤ ـ شكري ـ ص /٢٤/.

٥ ـ د. عمارة ـ الشراع ـ عدد /١٣٥/ ص/٣٦/.

٦ ـ علي زغل ـ العلوم الاجتماعية سبق ذكره ص /١٩٦/

٧ ـ د. الجابري ـ الشراع ـ العدد /١٤٦/ص /٤٠/

٨ ـ تيزيني ـ ص/٥/

٩ ـ الجابري ـ الشراع ـ عدد /١٤٦/ص/٤١/.

١٠ ـ الجابري ـ الشراع ـ العدد /١٤٦/ ص /٤٠/

١١ ـ العباسي نظام ـ مجلة العلوم الاجتماعية. سبق ذكره ـ ص /١٩٨/

١٢ ـ كمال أبو ديب ـ مجلة العلوم الاجتماعية. سبق ذكره ـ ص/٢٠١/

١٣ ـ شكري ـ سبق ذكره ـ ص (١١-١٣)

١٤ ـ تيزيني ـ ص /٣٠/

١٥ ـ تيزيني ـ ص /٧٧/.

١٦ ـ الجابري ـ نحن والتراث ـ ص /٨/

١٧ ـ تيزيني ـ ص/٩٧/.

١٨ ـ تيزيني ـ ص/١٣٦/.

١٩ ـ تيزيني ـ ص/١٦٦/.

٢٠ ـ تيزيني ـ ص/١٩٧/.

٢١ ـ مطاع الصفدي ـ مجلة الفكر العربي .. عدد /٣٢/ ص /١٩/.

٢٢ ـ الجابري ـ نحن والتراث .. ص /٢١/.

٢٣ ـ عادل ظاهر ـ العلوم الاجتماعية ـ ثورة. ص/١٩٥/

٢٤ ـ عادل ظاهر ـ العلوم الاجتماعية ص/١٩٨/

٢٥ ـ عبد الله العروي ـ العرب والفكر التاريخي ـ ص/١٨٦/

٢٦ ـ عبد الله العروي ـ العرب والفكر التاريخي ـ ص/٨١/

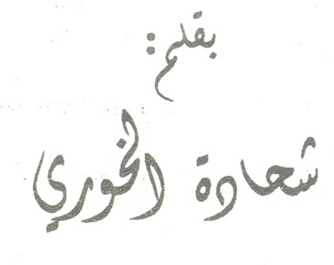
٢٧ ـ عبد الله العروي ـ العرب والفكر التاريخي ـ ص/١٧٠/.





- نشأتها وتطورها
- في عصر النهضة العربية الأولى

بقلم:



اللغة العربية

نشأتها وتطورها

ان اللغة العربية من أهم مقومات الهوية القومية، والعنصر الأساسي في الثقافة العربية التي هي ثمرة الفكر العربي على تعاقب الاجيال.

ان العروبة، اي الانتماء الى الامة العربية، والشعور بهذا الانتماء، انما عمادها اللغة والثقافة، ويلي ذلك المشاركة في الموطن والتاريخ اي هي نسيج اللسان المفصح عن الجنان، الذي يطبع الانسان بطابع معين في احساسه وخلقه وتصرفه وسلوكه.

والعربية لغة قديمة لا يعرف بالتحديد زمن نشأتها وما وصلنا منها شعراً ونثراً في فترة سبقت ظهور الاسلام بنحو مئة وخمسين عاماً، يدل على نضجها واكتمالها ولا يدل على بداياتها، وإن كنا نعرف ان كان لها لهجات مختلفة في ديار القحطانيين، عرب جنوب الجزيرة كالسبئية والحميرية والمعينية وفي ديار شمال هذه الجزيرة كالثمودية والصنوية والنبطية. إن هذه اللهجات قد اندثرت على ممر الزمن وبقيت لنا لغة العرب العدنانيين في الحجاز، وإلّم تخلُ لهجاتهم من تباينات من قبيلة الى اخرى.

زعم بعض المؤرخين ان اللغة العربية هي لغة سامية (نسبة الى سام بن نوح) ولكن أين السامية الأم التي انحدرت منها العربية وشقيقاتها: الآشورية والأكادية والفينيقية والكنعانية والآرامية والعبرية؟ إن هذه التسمية اصطلاح اكثر منها حقيقة، ولعل اللغة القديمة التي تفرعت عنها لغات أو لهجات

قحطان وعدنان واللغات السابقة هي لغة عربية قديمة موطنها جزيرة العرب وبادت آثارها بفعل الاحداث المتتالية.

لقد جاء القرآن بلغة قبيلة قريش المضرية العدنانية التي كانت تسكن مكة المكرمة والتي كانت قد بدأت تسود أرجاء الجزيرة العربية قبيل الاسلام، فكرّس سيادتها وأثراها بلاغة وبياناً وأغناها عقيدة وتشريعاً، وأفسح لها سبل الانتشار في أعقاب الفتوح، حتى ذاعت حيثما امتدت الدولة العربية الاسلامية، من تخوم الصين الى شواطىء الاطلنطي.

وللعربية خصائص فريدة، وإنّ من تفحص مزاياها، في مفرداتها وتراكيبها، وشعرها ونثرها اخذه العجب العجاب من فصاحة كَلِمِها وعذوبة لفظها، وجزالة تراكيبها ورقة عباراتها وجلال معانيها.

وحسبي أن أشير الى الخاصتين التاليتين من خواصها:

أولاها: اتصالها الوثيق بالطبيعة، ذلك ان الكثير من مفرداتها قد تكونت من أصول ثنائية البناء أي مركبة من حرفين مثل: قَطْ التي تدل على صوت القطع ونَبْ التي تدل على الخروج والارتفاع وصوتهما في الطبيعة. واذا ما أضيف الى الحرفين حرف ثالث اعطى الفعل تلوناً وخصوصية ضمن الدلالة العامة فنقول: قَطَّ وقَطَعَ وقَطَلَ وقَطَمَ وقَطَفَ كما نقول في نَبْ: نَبَّ ونَبَسَ ونَبَرَ ونَبَضَ ونَهَجَ..

وهناك العديد من الالفاظ التي تحاكي أصوات الطبيعة واصوات الحيوان واصوات الانسان البدائي مثل: خرير الماء، هبوب الريح، ومُواء الهر وصهيل الجراد وخُوار البقر...

ثانيتهما: اتصالها المحكم بالجماعة، ذلك ان العرب عاشوا أُسَراً محكمة الأواصر، تجتمع في أفخاذ وبطون وعشائر وقبائل تغوص عمقاً في النسب وتتزايد بالتزواج والتوالد، تفاخر بالآباء والأجداد، وتعتد بالأبناء والأحفاد وعلى صورة هذه الجماعة كان كلام العرب وجرى لسانهم: الألفاظ بينها نسب وقربى ولها جذر أي مصدر ومنه تأخذ المزيدات والمشتقات لتشكل معاً قبيلة كاملة. وقد يحسن ان تقدم على هذا مثالاً: مِنَ المصدر: عِلْم يؤخذ الماضي: عَلِمَ والمضارع: يَعْلَمُ والأمر: عْلَمْ. ومن المضارع تصاغ المشتقات: عَالِمٌ (اسم فاعل) مَعْلومٌ (اسم مفعول) عَليمٌ (صفة مشبهة) عَلاّمَة (اسم مبالغة) أعلم (اسم تفضيل).. ومن جَمَعَ يَجْمَعُ يؤخذ اسما المكان والزمان: مَجْمَعٌ، ومن فَتَحَ يَفتَحُ يؤخذ اسم الالة: مِفْتَاح.

وجميع هذه المشتقات متفقة في حروفها الاصلية وترتيبها ومعناها الاصلي. ومن المصدر بل من الفعل الثلاثي تؤخذ المزيدات ومن الرباعي تؤخذ مزيدات اخرى فمن عَلِمَ يؤخذ: أعلَمَ وعَلَّمَ وتَعَلَّمَ واستَعْلَمَ ومن دَحرَجَ تَدَرجَ، ولهذه المزيدات مشتقات ايضاً...

وهكذا تكتمل الصورة الجماعية لأسرة او عشيرة او قبيلة من اللفظ، وبهذا يصح القول: إن اللسان إنسان والإنسان لسان.. لقد أتينا بهذا القول الموجز لندلَّ على أصالة لغتنا العربية وقوة دلالة ألفاظها وعباراتها..

إن هذا الحديث يستتبع الحديث عن شؤون اخرى، اللغة منطلقها وقاعدتها: استيعابها للثقافة والعلوم المختلفة في عصر النهضة العربية الاولى: أيام الأمويين والعباسيين، ثم سعيها في عصر

النهضة العربية الحديثة في القرنين الاخيرين لتحقيق علميتها باستيعاب ثقافة هذا العصر وعلومه المختلفة، وعالميتها بأن يعترف العالم بأسره بأهميتها وبدورها الفاعل في الحضارة الانسانية المعاصرة.

اللغة العربية

في عصر النهضة العربية الأولى

لقد شهدت العصور القديمة فتوحات كثيرة مثل فتوحات آشور وبابل وفارس والاغريق والمغول والتتر، قبل الفتح العربي وبعده، فكان الفاتحون يدمرون حضارات البلدان التي يدخلونها ويبيدون معالم ثقافتها، ولكن العرب في فتوحهم التي قاموا بها بعد ظهور الاسلام بهدف نشر رسالته لم يدمروا حضارة ولم يبيدوا ثقافة، بل حفظوا كل خَيِّر ومفيد في حضارات من سبقهم واقتبسوا ثقافاتهم وتمثلوها خالصة من الشوائب، فصادت جزءاً من ثقافتهم وبعداً من أبعادها، ثم ما لبثوا أن أغنوا الثقافة الانسانية بما كشفوا عنه وما أبدعوا فيه، فأعطوا اضعاف ما اخذوا وصبغوا كل نوع من انواع المعرفة بلون عبقريتهم الفذة.

كانت المعرفة مطلباً وغاية لهم، والترجمة وسيلتهم في نقل هذه المعرفة واللغة العربية المبينة أداة التعبير والافصاح والشرح والايضاح. إنها لم تبقَ لغة الدين والفقه والشعر والنثر فحسب، بل الحت الترجمة في تلك الحقبة كيما تكون العربية لغة فلسفة وعلم فكانت، اذ افسحت صدرها للألفاظ الجديدة تعريباً حيناً وتوليداً واشتقاقاً ومجازاً ونحتاً أحياناً فكان أن اوجدت للأعيان والمعاني ألفاظاً جديدة تعبر عنها وتدل عليها.

لم يكن هذا التطور غريباً أو عجيباً، لان اللغة كائن حي، يولد وينمو، وكلما نما صلب عوده وامتد به العمر، واحتضن بين ذراعيه كل ابداع علمي او ادبي او فني.

بدأت الترجمة في ايام بني امية، الا ان الامويين كانوا مشغولين بالفتوح وتوطيد اركان الدولة فلم يتح للترجمة ان يتسع افقها، ومع ذلك فقد خطت في ايامهم خطواتها الاولى. اما في زمن العباسيين فقد ازدهرت الترجمة ولا سيما زمن الرشيد والمأمون ومرت بدورين: اولهما يمتد من قيام الدولة العباسية الى بداية عهد المأمون (١٣٢ ـ ١٩٨هـ) وثانيهما يبدأ بتولي المأمون الحكم وينشط طيلة عهده ثم يستمر بعده على وهن وضعف. وكذلك عُنِيَ رجال الأندلس من خلفاء وامراء ووجهاء بتشجيع حركة الترجمة، فترجموا كتباً عديدة، واصلحوا بعض ما ترجم في الشرق. وتألفت من الأندلسيين الذين كانوا يعرفون اليونانية واللاتينية مدرسة للترجمة تشبه بيت الحكمة ببغداد.

وبعد فماذا كان أثر الترجمة أنذاك على اللغة العربية؟ لقد استجابت للحاجة المستجدة احسن استجابة. ويذكر العلامة الامير مصطفى الشهابي الرئيس الأسبق مجمع اللغة العربية بدمشق في كتابه الموسوم «المصطلحات العلمية في اللغة العربية» الطرائق التي اتبعها النقلة (المترجمون) في ذلك الزمن لإيجاد المصطلح الفلسفي والعلمي فيذكر التالي:

١ ـ تحوير المعنى الاصلي للكلمة العربية وتضمينها المعنى العلمي الجديد.

٢ ـ اشتقاق ألفاظ جديدة من أصول عربية أو معربة للدلالة على المعاني الجديدة.

٣ ـ ترجمة كلمات أعجمية بمعانيها.

٤ ـ تعريب كلمات اعجمية وعدّها صحيحة.

ويضيف: ان المصطلحات العلمية التي أدمجت في لساننا في تلك الأيام هي آلاف مؤلفة من الالفاظ العربية ومئات من الألفاظ المعرّبة.

ومثال على ذلك انه وضعت في مجال الفلسفة ألفاظ اصطلاحية معظمها عربي وقليلها معرّب منها: فلسفة (معربة عن اليونانية ومعناها محبة الحكمة) والازل والابد، والقديم والحديث، والعلة والمعلول، الوجود والعدم، الصورة والجوهر، والموضوع والمحمول، والقياس والاستنتاج.... وفي مجال الطب وضعوا اسماء عربية عديدة كالجراحة والتشريح والكحالة، وسموا بعض الامراض مثل: السرطان والخانوق والذبحة والربو والباسور والاستسقاء وذات الجنب وقالوا: الترياق والقولنج والبرسام... وكذلك وضعوا اسماء عديدة للنباتات فقالوا: الخيار والباذنجان والمقدونس والبابونج والليمون واللوبياء والسوسن والنيلوفر... وفي علم الرياضيات وضعوا الفاظاً كثيرة منها: الدائرة، القطر، المثلث، المربع، المخروط والجيب والمماس، ووضعوا للكواكب والنجوم اسماء عربية او معرّبة نقلها الاوربيون عنهم، فيما بعد بألفاظها.

هكذا، وبجهد النقلة البارعين في البدء، وجهد المفكرين والفلاسفة والعلماء العرب بعد ذلك، اجتازت اللغة العربية معركة المواجهة الحضارية والعلمية مع ثقافات الهند وفارس وعلوم الاغريق والسريان بنجاح باهر، وصارت لغة علم وثقافة في ذلك الزمن والزمن الذي تلاه، والذي امسك العرب فيه بزمام الريادة مدة خمسة قرون متلاحقة كانوا فيها صناع الثقافة والعلم فأسهموا في بناء الحضارة الانسانية اسهاماً لم تصارعهم فيه امة من امم الارض، وتركوا لاجيال اليوم تراثاً نفسياً يبعث على الفخروالاعتزاز.

اللغة العربية

في عصر النهضة العربية الحديثة

أدرك محمد علي، حاكم مصر، بعد حملة نابليون بونابرت عليها، في مطلع القرن الماضي، ان قوة الغرب انما تكمن فيما حصّل من علوم، وان ضعف مصر خاصة، والعرب بل الشرق عامة، إنما يرجع الى التأخر العلمي والتخلف الحضاري، ولا سيما ان نابليون كان قد احضر معه الى مصر عدداً من العلماء الفرنسيين وافتتح في مصر مدارس وصحفاً وأنشأ مطابع ومراصد...

وبصرف النظر عن اسباب التأخر والتخلف في مصر والبلدان العربية الاخرى، وعلى الاخص تعرضها لغزوات عديدة مدمرة وفدت عليها من الغرب والشرق وتحملت اعباء مواجهتها وردتها: حروب الفرنجة الصليبية وغزوات هولاكو وتيمور لنك، وخضوعها لحكم غاشم طويل الامد مارسه عليها المماليك والعثمانيون، فإن لمحمد علي الفضل في ادراكه سر القوة وعلة الضعف وعمله الجادّ على ردم الهوة وتدارك التقصير، فكان ان ارسل

البعثات الى الغرب لنقل علومه وصناعاته، افتتح المدارس للعلوم العسكرية والطب البشري والطب البيطري ومدارس للهندسة والزراعة والصناعات والفنون والادارة ودار الالسن...

وكان على اللغة العربية ان تستجيب لمتطلبات هذه النهضة العلمية، وهي القادرة على ذلك. وبالفعل فقد نشطت حركة الترجمة والتأليف ولا سيما في رحاب كلية الطب بالقصر العيني، فألف مؤسسها الدكتور كسلوت الفرنسي كتباً طبية بالفرنسية وجرت ترجمتها الى العربية، واخذ الاساتذة المصريون يؤلفون بالعربية ويترجمون اليها ويضعون المصطلحات العلمية الجديدة التي يحتاجون اليها وفي مقدمتهم محمد علي البقلي في الجراحة ومحمد الشافعي وعلي رياض ومحمد الدري في العلوم الطبية المختلفة ومحمد ندى في النبات والحيوان ومحمد الفلكي ومحمد البيومي في الفلك والهندسة والرياضيات. وممن اجتهد في هذا المضمار محمد عمر التونسي وابراهيم الدسوقي ويوسف فرعون ويوحنا عنحوري، وكان للرجل النابه النابغ رفاعة الطهطاوي في هذه الحركة العلمية واللغوية دور بارز.

وبعد نحو سبعين عاماً من هذا الجهد الرائع (١٨٢٦-١٨٨٧) امتدت يد الاحتلال البريطاني لإخماد هذه الشعلة بفرض اللغة الانكليزية لغة تدريس للعلوم جميعها بمصر، وهكذا تبع الاحتلال السياسي والعسكري، احتلال ثقافي لغوي...

وفي الكلية الاميركية في بيروت دُرّست العلوم باللغة العربية، وبها تمّ التأليف واليها جرت الترجمة مدة ثماني عشرة سنة، وكان من رواد هذه النهضة ثلاثة اساتذة امريكيون مستعربون هم فنديك وبوست ورتبات. ثم هبّت ريحٌ معاكسة فتحول التدريس العلمي الى الانكليزية.

جامعة دمشق وحدها بدأت التدريس العلمي بالعربية بداية من عام ١٩١٩ وحتى اليوم ، بلا انقطاع، بل كانت اللغة العربية لغة التدريس في معهد الطب ومعهد الحقوق عند نشأتهما وأما اليوم فهي لغة التدريس والتأليف والترجمة والبحث العلمي في جميع الكليات والمعاهد العليا في سورية، وبنجاح باهر. وعلى الرغم من هذا المقال الساطع، واعتمال اكثر بلدان العالم ان لم تقل كلها لغاتها القومية لغة للتعليم، فإن الجامعات في الوطن العربي مازالت تدرس العلوم باللغات الاجنبية: بالفرنسية في بلدان المغرب العربي وبالانكليزية في مصر والاردن وبلدان الخليج، وثمة مساعٍ لم تكتمل للتحول الى العربية في السودان واليمن والعراق وليبيا.

ولكن كيف استطاعت اللغة العربية ان تصبح لغة ثقافة وعلم في العصر الحديث على الرغم من تردد كثيرين في الاعتراف بذلك والاخذ به في مجالات التدريس والتأليف والاعلام وغيرها من المجالات.

لقد استطاعت بذلك في المرحلة الاولى بجهود افراد افذاذ وضعوا مصطلحات جديدة وفق الطرائق المعروفة وهي: الاشتقاق والمجاز والتعريب والنحت. فأغنوا العربية بما احتاجت اليه لاستيعاب المعارف العصرية، وصنفوا

المعاجم العامة ثنائية اللغة (انكليزي - عربي، عربي - انكليزي..) والمعاجم المتخصصة مثل المعاجم في علوم الطب والهندسة والرياضيات والكيمياء وغيرها... ثم نشأت مؤسسات تعنى بشؤون اللغة وتعمل على تنميتها وتراقب تطورها وتسهر على سلامتها وهي مجمع اللغة العربية: مجمع اللغة العربية بدمشق (١٩١٩) مجمع اللغة العربية بالقاهرة (١٩٣٢) المجمع العلمي العراقي ببغداد (١٩٤٧) مجمع اللغة العربية بعمان (١٩٧٦).

وأقامت هذه المجامع فيما بينها اتحاداً ينسّق جهودها ويجمع ما بين نشاطاتها. وثمة ثلاثة مجامع اخرى في طور التأسيس: في الجزائر والسودان والمملكة العربية السعودية.

وقد نبهت، جامعة الدول العربية لاهمية الثقافة واللغة منذ نشأتها، فكانت أول معاهدة تعقد بين دولها هي المعاهدة الثقافية عام ١٩٤٥ وتبع ذلك احداث اللجنة الثقافية والادارة الثقافية فيها وانشاء معهد المخطوطات العربية ومعهد البحوث والدراسات العربية ونشوء مكتب تنسيق التعريب بالرباط وعقد المؤتمرات الثقافية والحلقات الدراسية والعناية بالتراث والتأليف والترجمة والنشر. وفي عام ١٩٦٤ وافقت الدول العربية على ميثاق الوحدة الثقافية العربية وإنشاء المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بمثابة وكالة متخصصة على غرار «اليونسكو» بالنسبة للأمم المتحدة.

وقد نص الميثاق على ان الدول العربية ترافق على ان تكون اللغة العربية لغة التعليم والدراسات والبحث في مراحل التعليم كلها، وعلى الاقل في المرحلتين الابتدائية والثانوية، ودعا الى تنشيط الانتاج الفكري وتوحيد المصطلحات العلمية والحضارية ومساعدة حركة التعريب واحياء التراث العربي وترجمة عيون الكتب الاجنبية، القديمة والحديثة...

وقد تمثل جهد المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم في هذا الموضوع برعايتها مكتب تنسيق التعريب الذي اعد اكثر من اربعين معجماً متخصصاً أقرنها مؤتمرات التعريب، وإحداثها المركز العربي للتعريب والترجمة والتأليف والنشر بدمشق الذي أنيط به اصدار الكتب المنهجية والمرجعية المؤلفة والمترجمة والتي تساعد على اثراء اللغة العربية وجعلها لغة علم وعلى اتخاذها لغة لتدريس العلوم المختلفة في الجامعات والمعاهد في الوطن العربي بأسره.

لقد تكاثفت الجهود خلال القرن الاخير لتأمين المستلزمات التي تيسر جعل اللغة العربية لغة العصر بكل علومه وآدابه وفنونه: المجامع العلمية، جامعة الدول العربية، مؤسسات وطنية وقومية ورجال نابهون همهم خدمة اللغة العربية... ومع ذلك فإن الغاية لم تدرك بعد، والمهمة شاقة وثمة أناس في السلطة وخارجها، في هذا البلد أو ذاك لا يريدون ان يقتنعوا على الرغم من الشواهد الساطعة والجهود المتواصلة.

إن التحرر الثقافي واللغوي، هو جزء لا يتجزأ من التحرر بكل صوره، ولعله أصعب منالاً من التحرر السياسي والاقتصادي.

إن اللغة العربية التي حققت عالميتها باعتراف منظمة الأمم المتحدة ووكالاتها المتخصصة بها لغة رسمية. قد حققت علميتها اذ هي لغة التدريس والتأليف والبحث في كليات علمية عديدة وتصدر بها كل عام آلاف الكتب والمجلات والنشرات وتلقى بها الدراسات والمحاضرات. على الرغم من تشكيك المتشككين الذين مازالوا في غربة شاذة واغتراب مقيت.

الشعر الموريتاني المعاصر

بقلم:

يوسف غاله

*** مقدمة**

موريتانيا هي الثغر الغربي من وطننا العربي. المحاصر ببحر الظلمات، والصحراء الكبرى، وحرارة شمس افريقيا الحارقة.

وقد ظل هذا الثغر النائي عن مركز الدولة العربية، سواء في دمشق، أم بغداد، أم القاهرة. أيام كانت هذه المدن عواصم الدولة العربية في عصورها السابقة. ظل مجهولاً، أو منسياً. بسبب من بُعد المسافة بينه وبين عاصمة الدولة من جهة، وبسبب صعوبة عبور الصحراء والوصول اليه من جهة اخرى.

إلا أن سكانه العرب ـ وبالرغم من انقطاع الاتصال بينهم وبين اخوانهم العرب في الولايات العربية الاخرى ـ ظلوا أمناء لعروبتهم، متمسكين بها، لغة، وثقافة، وعادات وتقاليد، وقيماً روحية. على الرغم من تتابع موجات القبائل الافريقية الوافدة عليهم من الجنوب، عبر نهر ضهاجة. وعلى الرغم من محاولات المستعمرين البرتغاليين والاسبان محو الشخصية العربية عن سكان هذه الارض.

واذا كان الاستعمار الفرنسي قد عممَّ دولياً اسم موريتانيا (أي بلاد السُمر) بدلاً من اسمها الذي اشتهرت به، وهو بلاد شنقيط. فإن العرب الموريتانيين لا زالوا متمسكين بـ (شنقيط). هذه المدينة التي كانت عاصمة الدولة. والتي كانت مركز اشعاع علمي وثقافي، حتى في عصر الانحدار الذي مني به الوطن العربي.

وإذا كان الشعر ديوان العرب في الماضي. فإنه مازال ديوان الموريتانيين حتى زماننا هذا. ويُطلق على بلادهم اسم بلاد المليون شاعر ذلك ان الشعر هو الفن الوحيد الذي يحظى بتقديرهم واحترامهم. يحفظونه، ويرددونه في مجالسهم، ويقرضونه، ويروونه. وللشاعر عندهم المكانة والتبجيل.

إن عدد كتاب القصة لا يتجاوز عدد اصابع اليد الواحدة. والرسامون كذلك. أما الموسيقا والرقص والتمثيل، فهي فنون محتقرة في نظر الموريتانيين. ومن يمارسها فهو من الدرجة المنحطة. لأنهم

يعتبرونها وافدة من الغرب، وتقليداً له، وتشبهاً به.

لقد طغى الشعر على كل الفنون الاخرى فهو الأرقى في نظرهم. والاجدر بالاهتمام. وهو الذي يربطهم بتراثهم العربي، وبتاريخهم العربي، ويؤكد انتماءهم للعروبة.

سوف نتناول في هذا البحث، الشعر الموريتاني خلال مرحلة ما بعد الاستقلال. أي من عام ١٩٦٠ الى عام ١٩٩٦. ولكننا نرى من المفيد ان نتحدث بايجاز عن المراحل السابقة. لأن الشعر الموريتاني غير معروف في أقطار الوطن العربي. فهو لا يزال مخطوطات، لم يطبع، ولم ينشر. وما كتب عنه حتى الآن، لا يكفي للتعريف به.

*الشعر الموريتاني ـ النشأة والمكانة

يقول الخليل النحوي: «لسنا نعرف الكثير عن نشأة الشعر في هذه البلاد فهناك قرون مظلمة لم تفض بعد بشيء من أسرارها، ومن المرجح أن تكون البلاد قد عرفت فيها شعراً ذا قيمة. لأن عمداء الشعراء المعروفين، تركوا لنا شعراً كان قد تمعدد، وبلغ أشده واستوى، فلا بد ان مرحلة طفولة شعرية قد سبقته»(١)

«ولدينا نتف قليلة من المعلومات تبرر هذا الافتراض. ففي عهد المرابطين كان الإمام الحضرمي، المعلم الثاني في البلاد، وقاضي مدينة أزوكي يكتب الشعر، وله مقطوعات ملحقة بكتابه «السياسة»

وفي القرن السابع الهجري كان محمد غلي، أحد بناة شنقيط الثانية، يكتب الشعر. ومازال أحفاده من قبيلة الاغلال يتداولون شعراً، في الدعاء والتضرع الى الله، ينسبونه اليه.

وفي القرن الحادي عشر، تقول الروايات الشعبية: ان ناصر الدين، إمام الزوايا ، جلد الحبيب بن بلا اليعقوبي، وأمر أن يطاف به مصفداً، لأنه نظم هذين البيتين:

رب حوراء من بني سعد أوس
حبها عالق بذات النفوس
جعلت بيننا وبين الغواني
والكرى والجفون حرب البسوس

* * *

يتفق الموريتانيون على أن النهضة الشعرية الموريتانية، قد بدأت مع الشاعر: سيدي عبد الله بن محمد المتوفي عام ١١٤٤هجرية. حيث كانت اغراض الشعر قبله مقتصرة على الاغراض الدينية (مديح، دعاء، توسل وعظ).

ولكن سيدي عبد الله بن محمد طرق الغزل وأبدع فيه، وفي غيره من الاغراض. ومنذ ذلك العهد ضرب الشعراء الموريتانيون في أوداء الحياة. إلا نفراً منهم ظلوا أوفياء للأغراض السابقة.

«لقد كان الشعراء الموريتانيون، اكثر اهتماماً ببعث القديم التليد، منهم بالبحث عن الطريف الجديد. وذلك مبدأ النهضة الحديثة، فهي احياء وبعث، قبل ان تكون ابتكاراً وابداعاً من غير احتذاء. على انهم عاشوا هاجس التجديد، وقدموا مساهمتهم في اغناء العروض العربي، فاستدركوا عليه»(٢).

أما الدعوة للتجديد، والشكوى من الاجترار والتقليد، فقد برزت جلية واضحة في مطولة للشيخ سيدي محمد بن الشيخ سيديا المتوفي سنة ١٨٦٩م يصور فيها أزمة الشعر والشاعر، نقتطف منها هذه الابيات:

يا معشر البلغاء هل من لوذعي
يهدي رحجاه لمقصد لم يبدع
إني هممت بأن أقول قصيدة
بكراً فأعياني وجود المطلع
لكم اليد الطولى علي إن أنتم
ألفيتموه ببقعة أو موضع
فاستعملوا النظر السديد ومن يجد
لي ما أحاول منكم فليصدع
وحذار من خلع العذار على الديا
ر ووقفة الزوار بين الأربع
وإفاضة العبرات في عرصاتها
وتردد الزفرات بين الأضلع
وتذاكر السمار بالأخبار من
أعصار دولة قيصر أو تبع
والقينة الشنبا نجاذب مزهراً
والقهوة الصهبا بكأس مترع

وتدافع الأبطال في رهج القتا
ل إلى النزال بكل لدن مشرع
فجميم هذا قد تداوله الورى
حتى غدا مافيه موضع اصبع
هل غادرت (هل غادر الشعراء) في
بحر القصيد لطامع من مطمع
إن القريض مزلة من رامها
فهو المكلف جمع مالم يُجمع
إن يتبع القدما أعاد حديثهم
بعد الفشو وضلَّ إن لم يتبع

* * *

«لم يتردد الذين اطلعوا على الادب الشنقيطي في التسليم بأن البلاد شهدت نهضة ثقافية أدبية منذ القرن الثاني عشر الهجري خاصة.

وقد حطمت هذه النهضة لمن شهد آثارها، التصنيف التقليدي لعهود الانحطاط في الادب العربي، وأثبتت أن الشناقطة حملوا لواء التجديد، قبل أن تقدم مصر رجالاً أجلاء، مثل البارودي، وأحمد شوقي»[٣].

فابن الطُلبة اليعقوبي مُحيي الشعر الجاهلي ولد سنة ١٧٧٤م أي قبل البارودي بأربع وستين سنة. وابن الشيخ سيديا الذي طرح اشكالية التجديد والتقليد توفي سنة ميلاد شوقي عام ١٨٦٩م.

وفي ذلك يقول عبد اللطيف الدليشي الخالدي: «ان من الشناقطة شعراء فحولاً، لا يقلون مستوىً عن امثال المتنبي والبحتري وشوقي والرصافي».

وهو يعجب «لكثرة ما يجد الباحث من الاعداد المتزايدة من هؤلاء الشعراء الفحول المجيدين العريقين في الجزالة اللغوية، والصور الشعرية الجميلة الرائعة المبتكرة في شتى الاغراض». ويستغرب «رقة أذواق وعواصف هؤلاء الشعراءلعلماء الصوفية المتدينين، وهم يحلقون في وصف الخصور والنحور، والوصال والقدود المائسة، والعيون الناعسة، والارداف الثقيلة، والخصور النحيلة»[٤].

ويرى الاستاذ احمد بن الحسن الى ان «الاحكام المتداولة في تاريخ الادب العربي، قائمة على تدوين ناقص، ينطلق من المركز، ويتجاهل الاطراف»

ولكننا نميل الى انصاف الباحثين ومؤرخي الأدب، فهم معذورون لنقص اطلاع كثير منهم على ادب الاطراف.

ولكن في هذا العصر لم يبق من عذر لأحد. بسبب سهولة الاتصال والتواصل.

* * *

بعد هذه اللمحة الموجزة عن الشعر الموريتاني القديم ومكانته، ندخل في رحاب موضوعنا، وهو الشعر الموريتاني في مرحلة ما بعد الاستقلال. وسنتناول شعر هذه المرحلة من ناحيتي المضمون والشكل.

أ ـ المضمون:

سنتحدث في ثلاثة اغراض رئيسة تطرق لها الشعراء الموريتانيون خلال هذه المرحلة.وهي:

١ ـ القضايا القومية:

إن الموريتانيين مسكونون بالعروبة، وبالمشاعر القومية في كل خلية من خلايا أجسادهم. وهم يخاطبون العربي من أبناء الاقطار العربية الاخرى بكلمة (ياالعربي) تقديراً، واحتراماً، وإجلالاً، وتمييزاً له عن الاجنبي.

انهم مرتبطون بقضايا الامة العربية أشد الارتباط. فهم متطلعون دائماً نحو الشرق، مشدودون اليه بوجد صوفي. فهو موطن أجدادهم، وهو قبلتهم التي يتوجهون اليها في صلواتهم. يتألمون لألم أية بقعة من الوطن العربي، ويفرحون لفرحها. فها هو الشاعر اسماعيل محمد يحظيه يخاطب سيناء بقوله:

إنّا محيوك يا سينا فحيينا
وشاطرينا أساك المرُ ياسينا
فنحن في الغرب جزء منك مغترب
وأنت في الشرق جزء من أراضينا

* * *

إن الوحدة العربية هدف وحلم العرب أجمعين. والشاعر الموريتاني يدعو لتحقيق هذا الهدف مثله مثل اخوانه شعراء المشرق. يقول الشاعر محمد الحنشي ولد محمد صالح:

يا قوم إنّا أمة عربية
ولنا مُرامُ العرب وهو مُرامُ
الوحدة الكبرى طموح نفوسنا
والمقصد المنشود والإلهام

ويخاطب الشاعر محمد كابر هاشم قادة دول اتحاد المغرب العربي قائلاً

يا قادة الخمس والتاريخ برفقكم
هبّو النجدة معزولي الطواعين
جئتم وأمتكم نشكو الشّتات ألاَ
إن التوحد نشوان الملايين
لا تتركوا العرض سبياً للغزاة ألا
لاتتركوا الأرض نهباً للسراحين

* * *

ويوم تعرض لبنان للاعتداء الصهيوني الغاشم عام ١٩٨٢ كتب الخليل ولد النحوي قصيدته (بيروت) والتي مطلعها:

بيروت كل القارعات سلامُ
ذهب الرجال ودالت الأيام
البحر حولك موجه من دمعنا
ودموعنا للسامرين مسدام

* * *

ويلتهب الجنوب اللبناني بالثورة ضد المحتل الصهيوني. ويسطر أبناؤه بدمائهم أروع ملاحم البطولة والتضحية. فتشمخ أمواج المحيط الاطلسي، وتعتز رمال الصحراء الموريتانية بهذه البطولات والتضحيات. يخاطب الشاعر محمد كابر هاشم الشهيدة سناء محيدلي بقوله:

حسناء لا تستنجدي تجلّدي. تجلّدي
تفجري. وفجري جسمك لا تستنجدي
ولتزرعي ضفائر الحسان في أرض السكون
ولتري معاصم الحسان في مزارع الزيتون
ولتلقمي زماننا الأبخر أثداء الحسان

* * *

وحين يعلن أطفال الارض المحتلة انتفاضتهم ضد المغتصب الصهيوني ينتفض الشموخ العربي عند الشاعر الموريتاني محمد ولد عبدي فيكتب قصيدته:

حنظلة الحجري

لك أن ترفع اليد
إنك بالوادي يا حنظلة
لك أن ـ يا صغير ـ تواجه
إن القفا حين يسقط صاحبه في الطريق الى الوجه
يصبح وجهاً
لك أن تصبح الوجه
خارطة
بين وجه قفاك ووجهك
حين انبجست من الارض تحمل روحك
يا حنظلة
للكتابة ان تدخل المرحلة
للقصيدة ان تتحنظل
ترسم كيف انطلقت من النثر والاسر في الصحف العربية فجراً الى ان تجليت في الطريق القدسية صخراً
رأيتك تملأ كفيك
يسكنك الوجد للأرض
تنفث سر القداسة في الحجر الحنظلي

رأيتك في الحجر ـ الشعب ـ تمشي
وخبزك بين يديك حجر
وأنت حجر
حجر يتقلب في سر أحرفه القدسية
حاء: حياة، وحرية تشرب الارض انخابها الأزلية
جيم: جحيم، وجرم تفجر تحت عروش السلاطين
راء: ربيع سيطلع من باطن الارض فيه ترفرف راية امتنا الواحدة.

ثم تأتي مشاريع السلام الاخيرة، وتهرول بعض الانظمة العربية للارتماء في احضان الكيان الصهيوني.

والشعب الموريتاني ـ مثله مثل اخوانه العرب الآخرين ـ يدرك ان ما جرى ويجري، ليس الا استسلاماً ، واهداراً للحقوق العربية.

لذلك فإن الشاعر ناجي محمد الإمام يحذر من خطر ما يجري، ويرى أن صورة المستقبل قاتمة اذا استمرت هذه الهرولة.

يقول في قصيدته «سنبقى ويمضي سوانا»:

يا ابن الكرام
هيا نقاتل هذا الذي هو آتٍ
حذارِ أفق
إنه ـ سترى ـ سراب بني المصطلق
سترى..

ستری .. غانيات يهوذا يبعن قوارير
من دمنا العربي حجاباً
وخيلاً عراباً
تقلّ كلاباً
ومرداً شباباً
وبيضاً كعابا
باورشليمَ تباع .. بروما لمن
عاهدوك .. تُباع. أفق

ويعتز الشاعر أحمد بن يروكيدي بالشام وحضارة الشام فيقول:

شامُ يا موطن النبيين قدماً
أنت أنت المنارة البيضاءُ
شامُ يا مَعقل الجيوش قديماً
أنت ـ في المجد ـ عبرة وسناءُ
شامُ يا منبع الثقافة جودي
أنت في الارض روضة غنّاء
فوق أرض المحيط للشام رايـ
ـات أدرن الهوى وحُقّ الهناءُ

* * *

ويفجع الشعب الموريتاني كما فُجع الشعب السوري برحيل الفارس الذهبي الشهيد باسل الاسد. فيكتب الشعراء الموريتانيون عشرات القصائد يرثون بها شهيد الإمة. يقول الشاعر محمد الحافظ بن أحمدو:

يا شمعةً كانت الدنيا تنير بها
درب العروبة حتى يشرق الأمدُ
تنكست بعدك الأعلام خاشعة
واخضر من نازفات العزة الكمدُ
تهاوت الشهب في أبراجها حُمَماً
وقُوضت من صروح الأمة العُمُدُ
تجترّ من حنظل الذكرى فجائعها
علاقماً مُذ تولى الباسل الأسدُ

* * *

٢ ـ القضايا الاجتماعية والسياسية:

إن المشكلات الاجتماعية والسياسية في موريتانيا، مشابهة لمثيلاتها في أقطار الوطن العربي بشكل عام. وان كانت هنالك خصوصية معينة بكل قطر. فهناك الفوارق الطبقية ، والظلم الاجتماعي، وتسلط الفئات الحاكمة، واستغلالها ثروات البلاد ولصالحها.. واستعمال القمع البوليسي، وغير ذلك من المشكلات.

ويتميز الشاعر الموريتاني بجرأته في تناول وطرح القضايا الاجتماعية والسياسية. وربما يعود ذلك الى النمط البدوي الذي لا يزال يطبع الحياة الموريتانية بطابعه. هذا النمط الذي لا يقيم وزناً للسلطة السياسية، أو للهياكل الحكومية. وانما المعبّر عنده هو عادات وتقاليد القبيلة.

فمن المشاكل القائمة في المجتمع الموريتاني، مشكلة العبودية. حيث لا يزال نظام العبودية معمولاً به حتى الآن. ولا يزال الكثير من الاسياد يملكون الكثير من العبيد الأرقاء.

ويعالج الشاعر الموريتاني محمد الحنشي ولد محمد صالح هذه المشكلة، رافضاً نظام العبودية ، وداعياً لإلغائه. يقول:

أين مني آذانكم والعقول
آدمي تعبيده مقبول؟
مشكلٌ في بلادكم وخلبسق
أن تُسنّى للمشكلات حلول
أي شرع يبيح ذا. أي عرف؟
أي أرض فيها بذا معمول؟
ليس عدلاً كلا. ولا خليقاً
أن يعيش الإنسان وهو ذليل
فاطرحوا الرقّ جانباً وانبذوه
واعدلوا عنه للتساوي وميلوا
تكسبوا العزّ طارفاً وتليداً
حيث يرضى الهكم والرسول

* * *

والفقر بصفته مظهراً من مظاهر الظلم الاجتماعي، من أكثر الموضوعات التي تطرف لها الشعراء الموريتانيون. فالشاعر محمد فاضل ولد الداه يصور حالة الفقر والبؤس التي يعيشها الشعب، موجهاً اتهامه الى السلطة الحاكمة واعوانها. ويحملهم مسؤولية وصول الناس الى هذه الحالة البائسة. فيوجه قصيدته «يا سيدي الهمام» الى رئيس السلطة الحاكمة. فيبدأ قصيدته بتصوير حالة الناس:

يا سيدي الهمام
بطوننا تقلصت
عظامنا تكلست
أقدامنا تقعرت
وأرضنا قد أجدبت وأقفرت.

وبعد ذلك يوجه الاتهام المباشر الى

رئيس السلطة الحاكمة:

وخبزنا
ومِلحنا
يا سيدي منحته لغرينا
رميته الى الذئاب
تنهشه بلا حساب
تبزه في كل باب
من الحلال والحرام
يا سيدي الهمام.

ثم يتحدث عن مظاهر البؤس قائلاً:

بيوتنا مستودع للحشرات
وماؤنا ملح
مستنقع للفضلات
ووجهنا ملوّح، مكرّس للنكبات
من الكتّاب، والحكّام، والولاة.

ويبدي تبرمه وشكواه من بطانة الحاكم:

يا سيدي.. أصهاركم.. أعوانكم
تسلّقوا أكتافنا
ليشربوا دماءنا
ليسرقوا جيوبنا
ليقطعوا أرحامنا
وأنتمُ دوماً ساكتون... تضحكون
يا سيدي
هذا الذي تفعله زمرتكم بشعبنا وأرضنا
كأنها مُلك لكم... كأنها ميراثكم

ولكن الشاعر ولدالداه مهذب مع السلطة، فهو لا يدعو الى الاطاحة بها بل يطالبها بالرحيل. فيختتم قصيدته بقوله:

يا سيدي الهمام
إنا هنا مواطنون
وهذه بلادنا
حياتنا ملك لنا، وأرضنا ملك لنا، ورزقنا ملك لنا.
فأيكم أب لنا، وأيكم لنا إله.
زنوجنا مواطنون
وبيضنا مواطنون
وكلنا ياسيدي متفقون
طيّبون وخيّرون
فلترحلوا يا سيدي
من فوقنا وتحتنا
فنحن وحدنا في أرضنا
مخلدون

*

أما الشاعر أحمد بن المختار فيصور من خلال قصيدته «رسالة استقالة من معلم» حالة الموظف الذي يعيش في حالة بائسة، لأن راتبه لا يفي بمتطلبات الحياة. وينتهي الى تقدم استقالته وترك العمل الوظيفي. نقتطف من القصيدة بعض المقاطع:

يا سيدي الوزير
تحية طيبة مباركة
من حقكم ـ مقدماً ـ ان تعرفوا هويتي
أنا ـ يا سيدي الوزير ـ معلم ..
في جهة مغمورة من وطني
لكنني مجتهد
فراجعوا ان شئتم محاضر التفتيش في ادارة التعليم
في ولايتي
وكنت في كليتي في الجامعة
مجتهداً
فراجعوا عميدها من فضلكم ـ ان فشلت
شهادة (المزيز) في اقناعكم ـ لعله
يتحفكم بأي شيء قد يفيد في قضيتي.

*

فراتب المعلمين
فتنةٌ
بين البنات والبنينْ
والاقرباء العاطلين
وصاحب الدكان، والجزار، والمشردينْ
وراتبي ـ يا سيدي ـ
تريد منه زوجتي مرتباً في كل شهر
وصاحبي في الجامعة
يريد منه منحة في كل شهر
وجارتي ام البنات
وجارنا ذو المسألة
وشيخنا الجليل..
وهكذا فراتبي يا سيدي غنيمة
لكل من هبٍ ودب

*

فنظراً لما مضى وللأمور التالية:
لأنني مواطن حقوقه مقدّسه
لأن في وثائقي شهادة، عالية، معادلة
لأن ما تريده وظيفتي .. من فتنة

يدفعني
إلى الفجور.. والجنون.. والعتاهية
لأنني يئست من ترقيتي
يئست من تقدم في راتبي ورتبتي
يئست حتى من سماعكم لقصتي
قررت ان احرر (استقالتي) من مهنتي
وفي انتظار ردكم
تقبلوا ـ مقدماً ـ تحيتي.

*

ولكن الشاعر ناجي محمد الإمام يصور معاناة الشعب، والحالة المأساوية له، وتسلط رجال الامن. بشكل اعمق مما تقدم. في قصيدته:

«رحيل مواسم الفرح» التي نقتطف منها بعض المقاطع:

يسافر فينا الحنين الينا
وتأكل احلامنا الفول
تأكل احلامنا السوق
ينتعل اليأس اكتافنا
ونقول: غداً سيطل على
العالمين الصباح..
نحاجي..
ويأكل أضغاث احلامنا
الحادث المتكور
خلف الخيام بعشرين ظفراً
يطارد عند حلول الظلام
الصبايا..
ويحرمهن لذيذ المنام
لماذا؟
أخا الدهر
ترحل عنك المواسم والفرح المستديم
ويقطن بين جوانحك الهم .. آهٍ..
أخا الزمن المر يا وطني
لماذا تهاجر عنا مواسم صحو الصبايا
وتسكت (شنَّةُ) موالنا المقمر
لماذا تكشر فيك السموم
وينهار بيت القصيد على ساكنيه
لماذا تموت الزهور
وبين سفوحك يندلع الشوك
هذي الرياض تكلس فيها الحمأ
كأن لم تكن..
حين كان الرعاة بها ينشدون
الثنايا ـ المرايا ـ الجفون
«ولا يحزنون»

*

نهاجر فيك ونبحث
عنك، ونسأل عنا
أكنا الذي كان /يا وطن العشق/
أم أننا قبلُ، ما قبلُ كنا..
نسافر فينا الينا.. ولكنها خطوات المعنّى
نمرُّ بألف مرابٍ
وألف محاب
وسبعين ألفاً من المخبرين
بأنا نمر .. بدون جراب
يعدون كم في حذائك من شوكة
كم تساوي..
اذا قيس بالشوك .. من تلتقيهم
ومن تنتقيهم..
ومن يحملون اليك الرغيف
النحيف
يادمه العرف الحلو، والنية الطيبة

*

أما الشاعر محمداً ولد الشدو فيهاجم حكام البلاد، ويبشر بالخلاص من الظلم، وبانبلاج فجر جديد. يقول في قصيدته «أطفالنا يتساءلون»

يا أيها المستلطون
أطفالنا في عهدكم عرفوا السجون
أطفالنا في عهدكم يتساءلون:
بأيِّ حقٍّ أيها الاقزام تكوون القلوب؟
وبأيِّ حق تجعلون القمحَ خبزاً للشعوب؟
وتدنسون قداسة الاوطان بالظلم الرهيب؟
من أنتمُ؟ حكامنا؟ من أين جئتم؟ ما الخبر؟
ما دوركم؟ لا تصنعون على الاقل لنا ابر
لا تزرعون، وتفسدون الزرع، تجنون الثمر.
تستعبدون، وتجلدون، وتقتلون بلا وزر
وتقدمون دماءنا للمتسغلين الأخر
يا أيها المتسلطون
أطفالنا في عهدكم عرفوا السجون
عرفوا التشرد والفظائع والجنون
اطفالنا في عهدكم عرفوا السلاح

رأوا الكلاب يذلّلون الشعب جهراً بالسلاح

لكنهم رضعوا الكفاح
ذاقوا وبال نظامكم
عشقوا الصباح
وغداً سيبتسم الصباح

*

ويرى الشاعر احمد عبد القادر في قصيدته «ليلة عند الدرك» ان السلطة الحاكمة تحفر قبرها بيدها. وان اساليبها القمعية ستدفع الشعب للثورة عليها، والتخلص منها:

العنف والتعذيب والليل البهيم
ليست سوى فجر انعتاق الشعب من كل الهموم
ومخاض يوم ترجف الدنيا له
حتماً ستبعثه الاشعة والضياء
وترفرف الاعلام في آفاقه
فوق الجموع الزاحفه
لتدوس أكداس الظلام
وتُطلع العهد الجديد

*

٣ ـ الغزل

ما من شاعر موريتاني معاصر الا وقال شعراً في الغزل. غير أن غزلهم لم يخرج عن الغزل التقليدي. فهو وصف لمحاسن المرأة، واظهار اللوعة من الفراق، وهجر الحبيبة....الخ

ونكتفي في هذا المجال بإيراد قصيدة للشاعر: الشيخ محمد بن ببانه الملقب بأبي شجة. والغزل فيها مختلف فهو اقرب الى الغزل الصوفي:

ذات البدْع

الشيخ محمد بن ببانه

ألا أيّها النخلُ المغرَّبُ بالضحى
جواهرَ آلٍ ومضُهنَّ كليل
حنانيكَ هل إلا إليكَ تولّهت
بنا من تعلاّت الشباب سبيلُ
حنانيكَ ما أبهى رؤانا ولا أرى
سوانا بأيدي الذاريات يجول
حنانيك كم أوحشت من روح نفسنا
دياراً بما تنأى وأنت خليل
وتغتال من أرواحنا كلَّ بارقٍ
إليك بطمس أنت فيه تحولُ
حنانيك إلا تدنُ أوقد لنا صدى
يزامر روحي من سناه نحول
سقتنا بوجد من مراياه كرمة
لها في أديم المُستحيل هديلٍ
فإن أنت لم تستبقِ من ودنا سنى
لديك ففي وحيِ الظلام بديلٍ
وإنْ بنا من حزننا أريحية
لها بدَع في سرنا وفضول
ألا ما لذات البدع تحورُ بالنوى
ويلوي بآصال الزمان عويل
ألا ترتمي ضفاتها في هواجري
وينهبني في جوقهن ذهول
لعل انصداع الفجر عن طائر النوى
بلبنى إلى هذا الزمان يؤول
فكم نعمتني بالعشيات أنجم
تألق بي منها إليك أفول
جزائر من خفق النجوم تلعثمت
بنا وبها من سحرهنَّ طبول
وحاصرني فيها من السكر بالذي
نطقت ومما لا أراك.. مثول
عشية شاعت بي من الوجد ضحوة
تمجُ العشا يا عنبراوتخيل
فطرت بهاالكأس الغوية من دمي
وحلأني قبح هناك جميلُ
وكابدت منها روعة الله فاطراً
بلألاء ذات البدع كيف أقول
وسميت ذات البدع لبني وربما
تهلل من لبنى... عليَّ نزول
وقمت بذات البدع حتى تنبعت
بقلبي الشموس الخضر وهي نخيل
وكنت بذات البدع نهباً لا نجم
سقاهن من شجو الحمام أصيل
وألفيت ذات البدع سكرى بما انتشتٍ
بقلبي مزاير الظلام تسيلُ
ظلال نماها التوت مما تشربت
رؤى الله تستجلي النوى وتطول

* * *

هنالك أغراض اخرى تطرق لها الشعراء الموريتانيون المعاصرون. ولكنها في مجملها اغراض محلية. كمسألة الجفاف، والحياة في البادية، ومشاكل

الحياة في المدينة التي هم حديثو عهد بها.

أما القضايا العالمية والانسانية الكبرى، فتكاد تكون غائبة عن اشعارهم. ولم اجد في هذا المجال سوى هذه الابيات للشاعر احمد عبد القادر بعنوان: ربيع كورجدة.

كورجدة ماذا ترى الأدمعُ
وأعينك الزرق هل تشفع
فأين الربيع وسحر التلال
ودندنة البدر إذ يطلعُ؟
أسائل جرحك أين الطيور
وأين الفراش وما يصنعُ؟
سأنشد قبركِ يوم اللقاء
وأسمع منه كما يسمعُ
بأن عدم الفجر طعم النسيم
ونام على المرضع المرضِع
سينساك قوم وقوم نَسوك
ولكن غيث الدما مُمرعُ
فقولي معي قبل موت الحروف
حوار الحضارات: هل ينفع؟

* * *

ب ـ الشكل

إن الشكل العمودي هو الشكل السائد للقصيدة الموريتانية. والاكثر قبولاً وانتشاراً ، من شعر التفعيلة اوقصيدة النثر. لأن الشعر الموريتاني كما تقول الشاعرة مباركة بنت البراء: «قد تأسست في بيئة صحراوية تكاد تجعله معزولاً عن كل ما حوله. وفي مثل هذه البيئة عادة ما ينشأ نظام اجتماعي مخصوص، ينعكس على الادب. ولعل لما بين الصحراء المورتيانية، وصحراء الجزيرة العربية، من تشابه، كانت التجارب الشعرية الاولى كثيفة، ومحاكية للاسلوب القديم»[5].

كما أن المحاضر[6] التي كانت منتشرة في جميع انحاء البلاد. والتي لا زالت قائمة حتى ايامنا هذه. قد ساهمت مساهمة فعّالة في ترسيخ مفهوم الشعر التقليدي وسيادته. لان الطفل في هذه المحاضر، يحفظ بعد القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف. الشعر الجاهلي،وخاصة المعلقات السبع. وشعر كبار الشعراء في العصور اللاحقة. ويتعلم عروض الخليل. كما يتدرب على نظم الشعر وهذا ما جعل الثقافة الموريتانية اكثر ارتباطاً بجذور الثقافة العربية القديمة وخاصة الشعر.

ولكن تجربة التحديث قد بدأت بعد الاستقلال. نتيجة لتمكن الشاعر الموريتاني من اسباب الانفتاح. وذلك بانتشار المراكز الثقافية العربية والاجنبية في العاصمة نواكشوط.

وتأسيس المكتبات، ودعم الدولة للبعثات الطلابية.

وابتداء من اواخر السبعينات، بدأ التأثر بالقديم يتناقص وبصورة واضحة.وأخذ الشعراء الموريتانيون يسايرون التيارات الادبية المعاصرة. فظهر شعر التفعيلة. ولمعت اسماء في هذا المجال امثال:

احمد عبد القادر، وكابر هاشم، ومباركة بنت البراء، وناجي محمد الإمام. ويعد هذاالاخير ابرز شعراء التفعيلة في موريتانيا.

وفي السنوات الاخيرة بدأت ظاهرة الشعر الحديث بالانتشار بين الشعراء الشباب. وكان للصحافة الحرة التي بدأت بالصدور في عام ١٩٩١ دور اساس في تعزيز هذه الظاهرة. حيث شرع الشعراء الشباب ينشرون قصائدهم على صفحاتها.

المراجع

١ ـ بلاد شنقيط ـ المنارة والرباط. الخليل النحوي ص٢٥١

٢ ـ المصدر السابق ص٢٥٥

٣ ـ المصدر السابق ص٢٥٧

٤ ـ المصدر السابق ص٢٥٧

٥ ـ صحيفة الحرية التونسية . العدد ٢٦٢٦ تاريخ ١٨ تموز ١٩٩٦

٦ ـ المحاضر: جمع محضرة. تشبه الكتاتيب. وهي بمثابة جامعة متنقلة في الصحراء.

مطلع القصيدة العربية

ما بين العصر الجاهلي والعباسي

بقلم:
محمود محمد أسد

ان الكلمة الساحرة خيرُ ما يعجب به العربي. فللكلمة البليغة سحرها وأثرها في نفس العربي الذي طالما أُعْجِبَ بها، وشَدّتهُ دلالَتُها. وشعرنا العربي قاموس بلاغتنا ودليلُ سحرنا.

به اعتزَّ العربي، ووقف مَزْهواً وتباهت به القبائل الى ان جاءه بيان الله في محكم آياته كترسيخ لسحرِ الحرفِ وأثرِه.

إن الشاعِرَ العربيَّ عاش متنقلاً كغيره في العصر الجاهلي يسير الى حيثُ الكلأ والماءُ والاستقرار. بينه وبين السماء. رفقةٌ وعشرةٌ مديدةٌ، وبينه وبين الارض عهدُ مودّةٍ سرعان ما ينفصم مخلفاً شريطاً من الذكريات ليحلَّ في مكان آخر يزرع فيه الذكريات التي شدّته وهزّتهُ بعنف وحرارة فلم يجد امامه سوى البوحِ عن خلجات نفسه وروحه فكان الشعرُ وحيَ النفسِ عما تحسُّ وتعاني. فأغلب القصائدِ الجاهلية تتفق بالوقوف على الاطلال ويمكن ان نستثني من ذلك قلةً منها كمعلقة عمرو بن كلثوم الذي استهلّها بالخمرة. في مطلع كلّ قصيدة وقفةٌ حافلةٌ بالذكريات تعرض ضمن شريط مجبول بالحزن والاسى والعَبرة والعِبرة والاستجواب. فلا تخلو قصيدةٌ من ذكر أيام اللهو والحبّ. هذا ما يعدونا للقول: ان الوقوف على الاطلال حالةٌ شعوريةٌ صادقةٌ نقلها الشاعر من اعماقه. فيها لوعةٌ وشوقٌ وحبٌ وودٌّ ووفاء. ولنا رَدٌّ على اولئك المتزمتين الذين اعتبروا الوقوف على الاطلال لازمة ضرورية خاليةً من أي مضمون. فهي تقليد واشبه بقانون صارمٍ لا يمكن لشاعر ان يتجنبه. لقد اساؤوا الفهمَ وغابَ عن بالهم ان وقفة الشاعر

الجاهلي على الاطلال وقفة حقيقية نابعةً من اعماقه. وهو الذي يقضي حياته متنقلاً هنا وهناك. ما ان يستقر ويرمي حمله وعصا ترحاله حتى يجمع خيامه وأوتادها ويحزم امتعته انطلاقاً لرحلة جديدة. وفي كلّ مرّة يترك قلباً وعبرةً وذكرى. تُعذبه آلام العشق والهوى التي تتجدّد مع كلّ رحلة ولهذا اكثر من ذكر محبوباته في القصيدة الواحدة كامرىء القيس وغيره. فمن الطبيعي ان نجد في شعره تلك النفحة الوجدانية. البدوية التي ينفثها من قلب حزينٍ دون إذنٍ.

مما يستدعيه البكاء وذكر الدموع والشوق لنسمع تلك النفحات. فامرؤ القيس في مطلع معلقته يقف ويبكي ويستوقف:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل
بسقط اللّوى بين الدّخول فَحَوْكلي
فتوضحَ فالمقراةِ لم يعف رسمُها
لما نسجتها من جنوبٍ وشمألِ

* * *

فأسماء الأماكن وتداعي الذكريات غالبة على كلّ القصائد الجاهلية: فطرفة بن العبد يقول في معلقته:

لخولة أطلالٌ ببرقة تهمد
تلوحُ كباقي الوشم في ظاهر اليد

* * *

لا بدّ من الوصول الى نتيجة حتمية من وراء هذه المقدمة. ان الوقوف على الاطلال في الشعر الجاهلي من صلب الواقع والمعاناة وقد ساعدت عليه الظروف الاقتصادية والاجتماعية والطبيعية مجتمعة. فلا تخلو قصيدة من ذكر اسم للمحبوبة او للاماكن والاشخاص «حومة الجندل ـ الدخول ـ حومل ـ ام اومن ـ خولة ـ برقة ـ تهمد ـ امُّ جُنْدَب ـ سلمى» انها لا تختلف عن مجموعة من الصور والافلام التي يلتقطها الانسان في وقتنا الحاضر. وبين وقتٍ وآخر يجترُّ شريط ذكرياته ليعيش احلامه وأيام لهوه ـ فزهير بن ابي سلمى:

صحا القلبُ عن سلمى وقد كاد لا يسلو
وأقفر من سلمى التعانيق والثّقلُ

* * *

فالتعانيق والثّقل اسماء لأماكن وجدت فيها سلمى.

وتأتي رياحُ الوافدِ الجديد. ألا وهو الدين الجديد حاملاً معه سحراً حلالاً ترك ألبابهم تحتار من روعة اعجازه الذي لا يأتيه الشكّ من بين يديه وبقيت القصيدة العربية في مرحلة اقرب الى الاستمرار على نهج الجاهليين. فأغلب الشعراء المخضرمين كحسان وكعب ولبيد وغيرهم مازالوا على عهدهم بالشعر ونذكر وقفة كعب بن زهير عندما قدم بين يدي الرسول معلناً اسلامه وتوبته بعد ان أهدر دمه لأنه هجا المسلمين:

بانت سعادُ فقلبي اليومَ مبتولُ
مُتيّمٌ إثرها لم يفد مكبولُ

* * *

فالمطلع جاهلي وغزلٌ ورغم ذلك اعجب الرسول بها فخلع بردته واكرمه واعلن عفوه وسماحه له. ولا بُدّ من التعريج في هذه النقطة الى نقطة ذات اهمية. فقد ذكر بعض النقاد ان الشعر في هذه الحقبة ضعف وخمدت ريحه وثورته فلنا ردٌّ موضوعيٌّ على هؤلاء نحاول من خلاله الإقناع فلهم تقول بأن الشعر لم يضعف بل خمدت ريحه وهذا عائد لأسباب متعدّدة. في مقدمتها احساس

العربيّ باعجاز القرآن وبلاغته فقد تفوق على القصيدة من دون شك بالاضافة الى اهتمام المسلمين به والالتفات الى حفظه وتلاوته وانشغالهم بالفتوحات ونشر الدعوة الجديدة. وهناك جانبٌ هامٌ يجب ان نذكرهُ فمادة الشعر ووقوده في العصر الجاهلي العصبية والنزق والخمرة والفحشُ في بعض الاحيان والإسلام يمنعُ ويكفُ عن ذلك. ونعرفُ قصة حبس الحطيئة في عهد عمر بن الخطاب. فالاسلام هذّب مضمون الشعر ولم يقف في وجهه بل اقرّ بدوره ومكانته واعتبره سلاحاً موجهاً للمشركين والاعداء، وقد امن بدوره قصة حسان بن ثابت مع مشركي قريش واعجاب الرسول وعمر بشعر عنترة وزهير وغيرهما... لما في شعرهم من معانٍ ومواقف رائعة فالعربي تهزّه الكلمة أينما وُجد ووجدت.

اذا القصيدة العربية لم تضعف بل هُذّبت الى ان جاءها المخاض من جديد في العصر الاموي فتهيأت لها الاسباب المساعدة للانتعاش من خلافات سياسية واحزاب وعصبيةٍ اجّجت نار العصبية ما بين عرب الشمال والجنوب وما بين الاحزاب من شيعةٍ وخوارج وأهل سنةٍ الى امور اخرى بين البيت الاموي وغيره.

كلُّ هذه الامور اعادت للقصيدة جاهليتها حيث الفخرُ والحماسة والطعنُ والحماسة وتمثل ذلك في النقائض وشعر الخوارج. فانتعش الشعر من جديد وظهر شعراءً من الطبقة الأولى كجرير والفرزدق والاخطل والكميت وجميلٍ وذي الرمة وغيرهم ممن لا يقلون مكانةً عن مكانة شعراء الطبقة الاولى والثانية من العصر الجاهلي والملاحظ في العصر الاموي ان شكل القصيدة اصابه شيءٌ من التطور فالوقوف على الاطلال استمر لدى الكثير من الشعراء ونخص منهم ذا الرمة وجرير والاخطل والفرزدق ولكن ظهرت المقطوعات الشعرية ذات الموضوع الواحد كغزليات عمر بن ربيعة وخمريات الوليد بن يزيد. من شعرٍ قصصي يعتمد على وحدة الموضوع ومن المفيد ان نذكر ان الدولة الاموية كانت حريصة على هويّة الشعر والسياسة ولذلك ابتعد الشعر عن التطور السريع والمفاجيء فبقي في قالبه العربيّ شكلاً ومضموناً في منأى عن العنصر الاعجمي الذي لم يدخل ساحة الادب والشعر والسياسة الا في العصر العباسي. بعد ان تهيأت له الظروف جاء شتاءٌ خيِّرٌ أتبعه بربيع معطاء.

إن العصر العباسي كان حافلاً بالمستجدات المطروحة على انماط الحياة المختلفة. فلم يبق العربُ على منبر الخلافة منفردين فظهر العنصر الاعجميّ وبشكل خاص الفارسي. وحدث التزاوج والاحتكاك وشرّع العرب نوافذهم للثقافات الواحدة المختلفة وفُسّر القرآن وجمع الحديث وترجمت الكتب وظهرت النظريات الكلامية واستقرّ المسلمون فبنيت بعض المدن كبغداد. أليس هذا كافياً للتغيير في منحى الحياة وطريقة التعايش وهذا ما حصل فعلاً ويمكن ان نطلق القول عن هذه الفترة بانها فترة تلقيح مابين الثقافات الوافدة والثقافة العربية فظهرت علوم حديثة كالفلسفة والتفسير والمنطق والعلوم والفلك وترجمت الكتب وظهر على الساحة الادبية شعراء وكتاب من اصل اعجمي ودخلوا معمعة التنافس بثبات منهم من دخلها بحسن نية كأبي

تمام وابن الرومي ومنهم من دخلها وهو يحمل سُماً كبشار متمثلاً بمجونه وفحشه ومجوسيّته التي لم يستطع كتمانها في العصر العباسي وابي نواس الذي يخرج الى الساحة متحاملاً على العرب وتراثهم. معلناً سخريته من العرب وخاصة الوقوف على الاطلال ولنا وقفة عند هذا.

الى هنا والامور طبيعية ولكن ما نريدُ ان نصل اليه هل من المنطق امام هذه التطورات ان تبقى القصيدة العربية في ثوبها المألوف الذي لم يعد يليق بها. بعد ان مرّت عليه فصول وانواءٌ. فلا بدّ ان يشمل التغيير شكل ومضمون القصيدة. فالمضمون تطور لدرجة كبيرة. فلم تعد القصيدة سطحية بافكارها. بل بدأنا نحتاج لكدٍّ ذهني وتأملٍ في فهمها. وهل نسينا الخصومة حول مذهب ابي تمام والبحتري وكذلك حول المتنبي ومثلهما المعري. فمضمون القصيدة اصابه عمق فكري لدرجة جعلت القُرّاء ينفرون منه وخاصة الاصوليون فاعتبروه خروجاً عن عمود الشعر العربي ولكن المعركة الحامية ظهرت في شكل القصيدة ومطلعها.

صحيحُ انّ أبا نواس هاجم مطلع القصيدة العربية ودعا الى تجنب الاطلال في اكثر من قصيدة بحجة انّ التجديد يجب ان يشمل مناحي الحياة:

لا تبكِ ليلى، ولا تطربْ الى هندِ
واشربْ على الوردِ من حمراءَ كالوردِ

* * *

وكذلك يعلن موقفه:

لتلك أبكي، ولا أبكي لمنزلةٍ
كانت تَحُلُّ بها هندٌ وأسماءُ

* * *

ويقول ساخراً من امرىء القيس ودعوته:

عاج الشقيُّ على دارٍ يسائلها
وعجبْتُ أسألُ عن خمارة البلد

* * *

وكذلك:

قل لمن يبكي على رسمٍ دَرَس
واقفاً، ما ضرَّ لو كان جلس

* * *

إن دعوة أبي النواس شعوبية يخفي وراءها كرها للعربية وهذه الدعوة التي دعا اليها قادمةٌ أجلاً ام عاجلاً وهذا الذي نقوله يؤكده الشعراء الذين سبقوه أو لحقوا به. لقد بدأ الشعراء يخرجون عن نهج القصيدة الذي ألفناه في الجاهلية، فالشاعر الذي عاش في العصر العباسي واحتَلَّ مع الاحداث والمستجدات لا بُدّ ان يُعبِّر عن همومه او يوظّف تجربته وحكمته وهذا ما نجده في مطلع القصائد حيث خرج الشعراء بمحض ارادتهم دون دعوة موجهة يُبتغى من ورائها التشهير والطعن.

فأبو الطيب المتنبي في مطلع قصائده يوظف الحكمة والاعتزاز بالنفس:

لكل امرىءٍ من دهره ما تعوّدا
وعادة سيفُ الدولة الطعن في العدا

* * *

وكذلك:

كفى بك داءً ان ترى الموت شافياً
وحسبُ المنايا ان يكنَّ امانيا

* * *

إن تطور الحياة لابدّ ان يوثر في حياة الناس عامة والشعراء بشكل خاص لما يملكون من رقة احساس فابن الروي بعد تأمل ومعاناةٍ وصل الى :

سليمُ الزمان كمنكوبه
وموفورهُ مثل محروبهِ

* * *

وأبو العتاهية يعتمد على المقطوعات الشعرية ذات الغرض الواحد. فيعكس تجربته وحكمته:

من عرفَ الناس في تصرُّفهم
لم يتتبّع من صاحبٍ زللا

* * *

فالحكمة والمصائب والمعاناة اصبحت اللازمة والمطلع المناسب لأغلب القصائد وهذا طبيعيٌ وحصيلةٌ وانعكاسٌ لثقافة العصر وتعقيداته الاجتماعية والسياسية فلم تعد هناك حاجة للوقوف على الاطلال طالما انهم استقروا في المدن. اذا الخروج عن نهج القصيد لم يكن مذهباً فكرياً او دعوة بل حصيلة طبيعية.

فولدت الحكمة ووظفت الثقافة بشكل طبيعي وليست قيصريةً كما أرادها ابو نواس.

والاسماء كثيرة من أبي الطيب الى المعري مزجوعاً الى أبي تمام وبشار وغيرهم. فنجد في شعرهم الشكوى في الزمان والعتاب ومنهم من استهلها بالخمرة فأشجع السلمي وهو شاعر عباسي يمدح الرشيد مستهلاً قصيدته بوصف الخمرة:

لا عيشَ الا في جنونِ الصّبا
فإنْ تولّى فجنونُ المدام
كأسٌ اذا ما الشيخُ والى بها
خمساً تردّى برداء الغلام

* * *

ومطيع بن اياس يشارك الطبيعة ويخاطبها ويشكولها الزمان:

اسعداني يا نخلتي حلوان
وابكيا لي من ريب هذا الزمان
واعلما ان ريبه لم يزل يفـ
ـرقُ بين الألاّف والجيران

* * *

كلُّ هذه المطالع توصلنا الى نتيجة ان مطلع القصيدة ومضمونها تطوراً بشكل طبيعي. فما الحكمة الا بوح نفسي لما يختلج في نفس الشاعر. حالها كحال الوقوف على الاطلال ولكن من منطلق التعايش مع الوقوف والتأثر به. فأبو تمام يستهلُ قصيدته التي قيلت في يوم عمورية بالحكمة وفيها يطلق وجهة نظره في المنجمين، وكذلك ابو الطيب في موقعة الحدث يعكس وجهة نظره ومعتقده ومثلهما ابو البقاء الزّندي والبحتري في سينيته المشهورة وابو العلاء في رثاء الانسانية:

غيرُ مجدٍ في ملّتي واعتقادي
نوحُ باكٍ ولا ترنّم شاد

* * *

وكذلك في رثائه لجعفر بن علي بن المهذب:

ومن أبى في الرزء غير الأسى
كان بكاه منتهى جهده
والشيءُ لا يكثرُ مُدّاحه
إلا اذا قيس الى ضدّه

* * *

بعد كلٌ ما تقدّم ارجو ان اكون قد وصلتُ الى نتيجة نهائية خلاصتها ان الوقوف على الاطلال ليس الا دافعاً انعكاساً واحساساً بواقع مألوف وان استهلال القصائد بالحكمة والعتاب وشكوى الزمان وغير ذلك في العصر العباسي ليس الا انعكاساً ايجابياً طبيعياً جاء في وقته وانّ ما دعا اليه ابو النواس في دعوته كان مقراً له ان يأتي في وقته المناسب ولكن شاء ابو النواس ان يظهر شعوبيته ويبقى الادب في كل مراحل التاريخ مرةً تعكسُ متطلباتِ الحياة ومؤثراتها والادباء اكثر الناس تأثراً في الحياة ولذلك كلُّ جديد لا بدّ ان ينطلق من عندهم وهذا الجديد بالمقابل لا بُدّ ان يجد من يعارضه وينافسه ويخاصمه وما هذا الا خيرٌ للأدب والثقافة فأدبٌ من دون جديد ونقاشٍ وجدلٍ يؤول الى جماد ونعلم انّ كلّ جديد سيصبح قديماً كما قال الناقدُ ابنُ قتيبة.

الجمال .. والخيال

حامد حسن

تعبّد للجمال، فقيل: غالى
وأمعن في غوايته ضلالا!

وعَينيكِ اللّتين تصبّتاني
على كِبَري، وأسرفتا دلالا

تَبرّأ من تمرّغ في الخطايا
من التّبعات إن عبد الجمالا

أحاولُ أن أسائل ما مصيري
لديكِ، ويذبح الخجلُ السؤالا!

أمالي عند ناعستيكِ وعدٌ
قِطافُ النجم أيسرُهُ منالا؟؟

***

وحرّقني الحنينُ الى شباب
نَعمتُ به غروراً واختيالا!!

اذا عَصَفت به الشهواتُ يوماً
وفَحّت في أضالعهِ صِلالا!

سكبتُ لها النّديّ من القوافي
فهدهدها وجسّدها خيالا!

خيالٌ لو يمرُّ على الصحارى
لفجرَهنّ ظلاًّ واخضلالا

يُعـابثُ في الدّجـا مُـقل العـدارى

ومـا اقـتـرف الحـرامَ، ولا الحـلالا!

تـفـرّد في الذّرا العَطِرات نـسـراً

ولم يَطأ السـفـوح، ولا التّـلالا!

ولـو تـرضين قلّدكِ الثـريّا

وعلّق فـي تـرائبكِ الهـلالا!

وغـارَ على مـفـاتِنكِ العـرابا

فـحـاكَ لهـا من القـمـرين شـالا

***

دفنتُ رغـائبي، وعـجـبتُ أني

أعـيش!! وكلّ أحـلامي ثكـالى!

اذا عـبث الخـيـال، أقـول: مـهـلاً

غـمـز الجمـال، أقـول: لا لا!

على الدرب

اسماعيل عامود

.. على الدربِ في غـمـرة المغـربِ بقـايا من الشـجـو لم ينضب؟!

وأنتِ على مـفـرقِ الأمنيـات تثـيـرينَ شـوقـاً تناسل بيَ!!

ومـا أنتِ إلاّ صـداي البـعـيـد ترامى على دربكِ المعـشّب!!

تَودّينَ لو تعـتـقين الخـيـال ليـحظى بعـشقٍ نديٍّ.. صـبيُ؟!

فـأمـضي.. ترفُّ طيـور المسـاء كـخطوي في سـبـسب مـرعب!!

ويغـمـرني الليلُ في بَرْدِهِ.. ودوني، تـهـاويل وعـدٍ غـبيْ؟!

يُعـربدُ منك شـرودٌ غـريبٌ تململَ في هاجس مُـخـصب!

أراني اليـه، أروح وأغـدو على قـدمي ناسكٍ مـعـجبَ...

وللشِعـرِ منّي، صـدى الامـسـيـات أُجاذبهـا في برهةَ المغـربَ!؟

فـينمـو وجـودكِ في خـاطرِ توشّح في خـاطرٍ مـتـعـب!

وأعـبـرُ، علّي أرى غـيـهـبـاً تلوَّنَ مـسراهُ بالغـيـهـبِ؟؟

وعندي من السـجـو مـا يسـتـفـيضُ على الريح في جرسـهـا المطرب

فليتَ مـا كـان ذاك الصـدى حنوناً.. لأغـرقَ في المطلب!!

آخرُ الرؤيا

بسام نديم علواني

١ـ صرخاتٌ على جدارِ المدينة

للليلِ منديلٌ..،
ونافذةٌ مشرَّعةُ التذاكر
من يسافر في السكون..؟
من يشتري حقلاً..،
ويفتحُ فيه أغنية الوزيد..؟
مَنْ يخلعُ الأسلاكَ قُدّامَ الدروبْ..؟
مَنْ يسألُ الوطواطَ عن سيرٍ..،
وفي عينيه مِرساةُ الظلامْ..؟
للبؤسِ..
للنّاي المسافرِ في قلوب الآخرين..
لأشعةٍ حمراءَ تُنذر بالجنين..،
وتفتحُ الشدقين عن عطش البيادر..،
والطيور...
لمساحة بعد الرّحيل...،
وفوق أشرعة الزوارقِ
تستديرُ الدمعةُ المفتولةُ الزّنْدينِ
في كهفٍ تعربدُ فيه آلافَ الرُّؤى
هل تُمطرُ الأسماءُ
وجهاً أقحوانيَّ الملامح، والعصور..؟
لمدينتي وجعٌ..،
ولي حضنُ الفصول...
لمدينتي جرحٌ..،
ولي كأسُ النّتانة والصّديد..
لمدينتي هذا التحنُّطُ،
يعتريني الجصُّ، يسأمُني السُّباتُ...
وحدي أفصّل عالماً..،
وأمدُّ خيطَ النورِ في ثوبِ الضباب...
وحدي سانتظر البراري
كي تُعيدَ القبّراتِ لعرشِها..،
ويلوبَ في أفيائها شبحُ الحياة...
وحدي أغنّي ذلك الوجه
الذي لا بدّ آتْ...
سبحان وجهك
إن ألمّ الوجد قلبي..،
واعتراني الجصُّ في تلك الزوايا
كم يُفجّر فيّ موّالاً وذات...
ويصيرُ خُبز للجياع الروحِ
تمضغُهُ العيونُ
تسيلُ ملءَ الآهِ أنّاتُ التراب...
سمراءُ..
هذي الجبهةُ الممدودة الغيماتِ
في وسطِ الخواءْ...
مَنْ غيرُ وجهكِ يُمطرُ الأزهارُ
في قلب تمسّك بالفناء..،
وآثر التكفير عن ذنب الجهات..؟
سبحان وجهك

إن أتاني الطيفُ ملتحفَ الزوابع
من يدقُ الباب في ذاك المساء..؟
مَنْ أشعلَ الاجفان
حين الليل يجهشُ بالصفير،
ومدّ أجنحة لأعرج في مداه..؟
المستحيلُ!
سبرتَ سمتَ المستحيل،
ونفشت في ثوب التمرّد
وجهك القزحيّ
غابات مفصّلة الضّلوع...
لمدينتي الصحراء
اقرأ في ملامحها العقارب...
والرمال الحمر اعرفُ من تناثرها
الحوافر والرماح...
السّيف أصدق من سحابٍ أبيضٍ
والريح تدركُ من تبارك في الشتاء...
وحدي افصّل جدولاً...
وأقبّل الأقدام تصهل بين انفاس السّطور،
وفوق امواج الرؤى..
مَنْ أنتَ..؟
حتّى تُزهرَ الاحجارُ في حلمي
وتندى من قساوتها الصّخور..!
الخوفُ أشجعُ من حذاقة ناصح...
والليلُ مجتمع الظنون...
لمدينتي الشّكّ المخيف، وهذه الاشباح
ترقصُ فوق اوتار المغيب...
وفي متاهات الفواصل كم يضيع الوقت
تنحسر الشوارع بين نهد عابسٍ
أو تحت قبّعة السّماء...

هذا الرّحيقُ...، وهذه العدوى...،
وتلك الثرثرة...
لم يبقَ إلا العارُ يلبسني التّزمّتَ...،
واغتصاب الروحِ، ويحكَ لا أطيقْ..
المجدُ للنهر المكفّنِ، لارتجافِ الحقلِ
للشّفق اليتيمِ
لهذه الاضراس تطحنُ مقتها
لرغيف خبز جائع تحت الرّصيف...
ليمامة الغصن المحطّم
من تجاعيدِ الفصول..
حزنان من ألم الحروف
تآكلتْ نبضاتها...، ومضتْ تزفُّ الآهَ
للوقتِ الكسيرْ
حزنٌ على طينٍ توهّج بامتطاءِ النّارِ...،
واستلقى، فلازمَهُ الشّواء...
حزنٌ على بلدٍ تغادره الدّوالي...،
والبلابلُ...، والسنابلُ مُفرغاتْ...
هذي الحياة تجمّعت أشياؤها
حملت حقيبتها على كتفٍ تآكله الصدأ...
ومضى حصارُ الزّمكنه[1]...
هاتِ الموائدَ يا سكونْ
إنّي ألوذ بهدأة اللّيلِ المسافرِ
علّني أعدو على شفة الجّراح..
مِنْ علّم الأقداحَ
تسكرُ من ملامسه الشفاه..؟
ألمٌ علا ألماً
وتلكَ مصيبةٌ اخرى
فدعني كيْ أفجّر حلمةً
من راحتيّ

وأملأ الدنيا حليباً من دنانِ الآخرة..
ارجوك دعني كي أضمّد خاصرة...
لا ضوءَ
في هذه الحياة فأبصره..
الطينُ يأكلُ بعضه
ويمجُّ في قدحِ النّتانة آخرة...
زمنٌ تبرأ من سطور كتابه
فرمى عباءته على قدمين
من لهب الحصاد...
وغادره

٢- ثوبٌ آخرُ لعنترة

مُدّ السّواد...،
فلستَ أبيضَ من دُجى
يمشي الى ثوب الذّهول...
مُدُّ السّواد... فبحرنا خصبٌ...،
وسيماءُ العلاقة في أفولْ...
وارفع رتاج الموتِ
إنّي أسودٌ،
أقسمتُ بالملح المعطّر
أن أكونَ كهذه الغيمات،
أو ألاّ أكون...
مُدن كسيفِ القرش
اعلنت البداوة أن تعوم ببحرها...،
وتلوك من صدف التعنُّت شطّها
رحماكَ - ميناء الحضارة -
أعشبتْ سُفُني، فمن يسقي البحارَ
بوابلِ الأسفِ الحرونْ..؟
مُدُنٌ مِنَ الكبريتِ
ألقتْ نهدَها في النّارِ
حتى تُرضِعَ الياقوتَ،
والمَرجانُ جُن...
لا حلمةٌ تطفو على نوّاره
حينَ استعادت نهدها
من يطفىء القدح المغمّس..؟
إنّها.. الكبريت يدرك
ما احتراقُ الماءِ في الألق المكهرب..؟
ما يفيد تكلّس الرؤيا
اذا انفجرت عيون..؟
مدّ السّواد... فليس قبحاً
ان تسود عواصماً...، وتحطُّ جنحك
في بلاد الملح...، و «التّنك» السبائك
في الحقول..
من يشتري هذه الجداول
ينحني قدّام سنبلة...،
وينسى كم غمسنا حُلمنا
برغيف خبز لن يجيء،
وأنّنا.. ما عاد ينفعنا التحنُّك
بالنخيل...
رؤيا.. وتنكشفُ الصّبابة
ليسَ يعرفني التدحرجُ للأعالي
ليسَ يُدنيني اللّعابُ الى عواصم
لم يزل يعلي فواصلها اللّسان...
من أينَ يبتدىءُ الرّجوعَ الى الامام..؟
وأين يختبيء الوراء..؟
ثوبان للرؤيا...، وتُدهشني الثياب
وأنا المزنّر بالهزيمة كم ستغريني المدائنُ
في عصور الشّمس، تقذفني القبابُ...
جسدٌ لأنثى تستحمُّ بدفئه

ترتاحُ من تعب التشظّي في المرايا
تدركُ الأشياءُ لذّة أن تكونَ سحابةً
في الصيف..، او عصفورةً
تلجُ الصبّاح فيستفيق..
رحماك.. يا ألق التشظّي
إنّني عبدٌ - تكسّر في امتطاءِ تفتحي -
أمشي، فينحرفُ الطريق
عن الطريق..
مدن..، ويمتدُّ السواد
إلى عوالم
تكنز الياقوت..، والحجر المندّى
فاخلع النعلين إنّك مركبٌ
في هذه الصحراء للحلم الهتون..
مدّ السواد..، فوحدك المسجون
في تاج الخزامى،
وحدك المعتوق من شعر الخرافة
تنثني خجلاً..،
وتحيا في ارتداد الماء نار..
من اين يشتعل التّحول..؟
في انغلاق الريح
تعرفُ أنني نومٌ، وجفنيك النعاس..
مدّ السرير ...، وقسم الاحلام
وحدك لن تفيق...
انثى تحاصر غيمتين ببوحها
سمّيتها ثكلى
فعاصمة لثكلى..، واثنتان لظعنها..
عرقاً.. لتنسى صحوها..،
واملأ رغابَ الدّنَ
بالفوضى الرّجيم...
رحماك..

يا مدن التّزحلق في السوّاد...
أ... ليتَ
يسبقني الحضورُ الى اللقاء...،
ضفيرتان..، وانت عش
أقسمت بالولع المعدن
انني قوسان احضن ذكرها
وأميل عن ترف الصحارى
أبحث الاحجار عن خدٍّ
يقاسمني التكسُّر في النبيذ..
ولم أجد الا مدائن صرختي
تذوي ويسبقها الصّدى...
مُدّ السواد...،
وغير الرّؤيا
فإنك أسودٌ كالقحط
في حلق الحضارة
لن تكون كهذه الغيماتِ
إنّكَ
لن تكون ...

٣ـ آخرُ الرُّؤيا

من أينَ تنطلق القصيدة والبكاء..؟
دهرانِ من ألم...
وثوبٌ للفصول..
من خاط هذا الابيض الزّبدي
في كفن يسربله المساء..؟
وأفاق للنّجوى
فلا ليلٌ يعشش في مخيّلتي ...،
ولا قحطٌ يؤاخي الذاكرة...
فاملأ دنان الأسود المطليّ

إني أعلنُ الأسماء
في سطر التوازن
انثني للظّل، تحضنني السماء..
رؤيا لأنف افطس..،
وفم يمهّد لانطلاق الوجه.
من رئة لسوسنة..،
وصدر لاحتشاد الروح
يبتسم الرجاء..
يا آخر الرؤيا:
سألتك ان تضيء
تعفّن الوجه القمىء،
وتستوي كالياسمين على شعاع
قصيدتي
الحُبلى بألف بطاقةٍ
للطينِ رحلتُهُ..، ولي هذا الضياء..
للطين عشب أجردٌ، يدلي بهذا الوحش
في قفص السّعال،
لترتمي الاسماء قدّام الحضارة
آه .. يا ألم الحضارة..
إنني اقسمتُ بالماء المفجّر
أن أعيد الى السوّاد
رحيق امواج البحار
وهذي عشاق السحاب..
للطين ملبسه..،
ومشربه..،ومأكله..،
ولي .. هذا النقاءُ...
مدنُ ستذوي،
كم ستذوي
في محيط تفجُري
ويعود للطّل
ارتجاف الزّهر
في الكتب العريقة بالنجوم..
اليك يا مدن التفتت صبوتي
ارسلت كلّ الانبياء...
هذا «منيفٌ» (٢)
يرفع الأقداح في نخب التّدهور
يستعيد بواعث الرّؤيا
فتنشطر العواصم
في عجينٍ
مرّ من قرب البخار
ولم يصر
لرغيف نفط...
رحماك يا خيماتنا المتنقلة
من أين يندفع الزجاج
الى أنابيب التحضّر
في الثواب؟!
هي رحلةٌ
لمدينة اخرى
وثوب آخرٍ
عد يا بريق تفتّحي
بوّابة الرّؤيا تؤرجح انني
قد استعيد صواب أغنيتي
وأرتجلُ البوادي
أصقلُ الاحقاب في دهرٍ
يسافرُ في جدار الطّين
تندفع الخطيئة في الثّرى
فيمرّ في اشلائه التاريخ
ينتفض الهواء..
اليوم ينثقب الذهاب
إلى التكهرب ثمّ ينتصر الاياب...

الزمكنة: نحت مأخوذ من الزمان والمكان.
منيف: اشارة الى الروائي العبري عبد الرحمن منيف في روايته (مدن للملح)

سراب الشك

بقلم:

هناء علي حريري

.. أحانَ لقاءُ الحب في العمر... بعد أن عانقت شمس الحصاد في صبر.. دعِ النزهاتَ يا وفاء وارتحلي.. إلى هناك حيث امرأة الفكر تنتظر في ملل.. لك متّسع بلقاء سيدة النهضة، لكل ما جال في الفكرِ..

وكيف لا، ونهضتها وليدة وعي وإدراك لواقع المرأة في الزمن... وأنت من تجسو في فكرها الحلم المقيم في وجدان المرأة المتحررة من الظلم.. وتخشى الولوج في الاباحيّة والذنب... وتخادن الحرية في صبر.. ألم يربضَ ضجرك في مراسيه وأنت تنتظري.. بعيدة عن الرجال في عصر ذبح الفضيلة في ضحك.. هيا انهضي حان لقاؤها فقابليها في حب..

* * *

نعمَ فرحة العمر أسعى إليها في ود.. فتدبَ قدماي على رصيف الكلية التي تعمل بها في فرحٍ... وعيناي ترى حدائق الكلية تحيا حفلاً باذخاً في عرس .. كأنَّ الغيرة على الشباب وقوّته قد تفجّرت ينابيع من الحب..

لله درُّ الحدائق تتألق خضرة ونظافة.. تلملم أذيال الشمس في وله.. تختال فرحة بأصوات الأقدام العاشقة التي تحف بأن صفقتها بدلال...

وأتساءل وأنا ادخل غرفتها على امل..

أيشقُّ قمر اللقاء طريقه الى الظهور في صبح.. كقمر وجهها الصبوح مشرقاً بترحيب أناملي تهجع في راحة كفّها كأنا صديقتان من زمنٍ .. وبريق نظراتها يبتلعني في ود... أتسمعني عبارات ترحيبها الملونة بألوان شخصيتها الاسرة في سحر...

ماذا أرى؟ أناقة رائعة من غير تكلف.. جسد متناسق ساحر كجسد عذراء يافعة في نضج، وجه طفولي ذاب السحر في قسماته بألوان.. بل انها العروس في غرفة جرباء يكتسحها الغبار في نكر.. لا تبارك لها الا قسمات الشمس في عشق لتسكن في الخطوط التي رسمها الارهاق

على الجبين واليد.. وأذوب من حديثها الشيّق وكأنني ثملى في سحر..

أأنا من أنمو واتحول فكرياً في مناخٍ جاف.. أنا هنا أمام رائدة صرخت في داخلها اصوات النساء تتحدى من ظلم .. ودفعها المخاض الأليم للولادة في عسر...

ما اسعدني بشخصيتها الآسرة تغمرني في فرح.. تنسج حول زوحي أزهار من طهر.. هي الآن ستسمعني رأيها فيما نشرت من مقالات ومن قصص.

وسأحضر اليها ما أود نشره في كتب.. لا يكفي ان تبدي اعجابها في الفكر والقول.. اريد رأيها بقالب العبارة من لغة.. يحب ان يستغيثها الناشيء.. يهضمها مافي يسر ورتق شعر..

* * *

وانتظر رأيها والعينين الساحرتين تتفحصني في حذر.. وأضحك في خدر.. اذ تتغزل بي كقيس يتغزّل منتشياً في ليلاه ياليل. كأنها لا تعلم انيِّ غلقت قلبي عن التفكير في الانوثة وما يرضي..

دع التغزل جانباً.. وتنبّهي لكارهة الجمال في صمت.. تنبهي لهروبها، ولا تسألي السبب في لجعٍ.. ناقشيها تسترسل والصور تتزاحم في رأسها مجسمة أفكارها في أدب...

يالتيقظ الذّهن حين يحضر في النظرات والشّفة.. ها هي تتنبه لهروبي من تغزلها في أدب، فتناقشني فيما كتبت عن معايير الزواج في صدق تتساءل: كيف للمعايير ان تحقق الاخلاص والوفاء للزوج، والرغبات قد سيطرت على العقل في ضعف.. بل الرغبات قد حوّلت الرجل سلطاناً وانثاه جارية دون كلل..

فأجبتها:

فدتك الروح يا عمري، إني أكتب للناشئة تلبية للواجب في عصر ذبح الفضيلة في عذر.. لا أبتغي فيه تغيير رؤوس من رتعوا بين احضان النساء سكارى من ثمل.. بل انها المعايير للمراهقين ليبتعدوا عن الزواج إن أضحى مغامرة تكشف عن الخيانة والغدر ..

وكلاهما لغة العصر في ذلك.. ورحت سابحة مع القسمات في الوجه.. وأسـاريرها قد انكمشت من الخوف.. وسحبتُ أنفاس الماضي في ألم.. حتى تشكلت امامي سحابة من الصور.. تمزق صراخها واندفعت موجات هائلة صاخبة من أعماقي سخر.. تلوم كل زوج يبيع ذكاء زوجته جمالها كفاحها بثمن بخس.. بلعوب تبيع مبادئها من اجل رغبات عاتبة تعفونها بالحب..

آه لآلامي اضغطها.. تنهداتي أخنقها.. عبراتي هذه كيف أبددها، لا أدري انها تنزف كدمائي المضغوطة بكره الغدر سأضع أقفالاً على حزني، وأخفيه ساترة جرحي في صمت.. وسأتعاون معها لنساهم في القضاء على مسلك فحول ضفادع تلهث عابثة تنق لتستقطب الجانحات الغافلات في ثياب العفة والطهر..

* * *

السخرية القدر !! أأستيقظ على تساؤلاتها، لألمح روحاً تخش الافكار.. أتُظهرُ نظراتها ظلال فكرة مجلجلة وليدة معاناة شحنت الاسارير بانفعال لا شعوري هائج يخش المخاض.. أتتساءل مسرولة العبارات بالود بالحب.. لكن ماذا أسمع؟ ماذا أرى؟

العبارات مجبولة باللباقة والحب.. وقمسات الوجه مزدحمة بالخوف والشك.. ترى ماذا جرى؟! أيقذفها تيار الخوف من زوجها الى شاطىء الشك بي... أتتفق آراؤنا رغم ان اساريرها تعج بشك يحفر أخاديد ألم في موطن احترامي لنفسي؟!

إن شكت بي فلا بأس لأنها مازالت لا تعرفني وصداقتنا حديثة العهد..

أما أن تشك بزوجها؟! فهذا هو الظلم نفسه في هذا الزمن...

لله دره من رجل صادفته في مكتب صديقه...

فنسج حول اسمي خيوط ذاكرته.. وغاص بصره في اسراب من مقالاتي.. ثم عرفني بنفسه وبزوجه مفتخراً .. وشجعني على الاستفادة من تقويمها

متنزهاً عن سوء الادب في المسلك والكَلِم..
أيُشَكُ به في ضعف.. كلا.. ربما غرّةُ نزوع الى المراهقة قد نبت به، فقادها اليوم خوفها الى الشك به. وردّتها التجربة الى اتّهامي..

كلا، لن اسمح لها.. لست مراهقة أئن الحاجة والوصال..

ثم انا لا اصدق، ازوجها نَزّع الى المراهقة يوماً.. لا، لا، نظمُ النفس الفاسدة يؤ دي الى سقم بأسلوب التّعامل مع المرأة، أيّا كانت المرأة..

إنها تتهم كلينا .. تظهر ان حجابي رمز لصلتي بالله وما أنا إلاّ حفرة تراب تحتضن شبق الرغبات...

لن ادافع عن نفسي.. لن اعود اليها قبل إن يتبدد سراب الشّك في طهر.. سأعبُ من اخبار القائدات.. بلَ من الرجال من يساعدون دون مقابل.. ولن أفقد ثقتي بمسيرتي يالسخرية حظي من قمعٍ.. أيتعانق الجسدان في حب.. أتأتلف الأرواح في ود أتدعوني لبيتها في نغم.. ومخاوف النفس تخش الغرفةَ من شك؟!

* * *

أأحترق؟! أحترق؟! الى متى ؟! أأقفز الى أغوار ذاكرتي فأتألم.. أأعب من مياهها السّوداء ولا أتكلم؟! أأتذكر نظراتها تلتهمني منْ أم خماري إلى أخمص جلبابي ولا أتخيّر؟.. هل وقفَ هذا الحجاب في طريقي ولم أتفنن؟!

ألم ترتديه المرأة في الجنوب وهي تساهم في التحرير ولم تتزين.. أأنا اخترته برغبتي بجهلي برجعيتي.. ما اخترته والله إلاّ بعد ان أغرت فتنتي نفوس بعض الرجال، فتغزلوا.. فتحررت من قيودهم ومشيتُ أتسيَّر...

عبرات القلب تحجري لا تقفزي، آثري الصمت كي لا أجُنَ وتحبني...

ذاكرتي لا تغريني بالقفز الى أغوارك ، لن أعبَ من مياهك كي لا أسيرُ في كظم.. وانا أريد ان أنس الاستاذة.. وكيف لا والخوف قد جعلها تظن ان الانحراف الجماعي قد أثر على مسلكي في صمت بل أثر على مسلك زوجها في سر وفي علن وزوجها سامحه الله من عاقل.. أيزكيني عندها دون أن يراعي خوفها من الشك أيخالف شريعة المجتمع في طهر .. ثم ينادي بضرورة التغيير بأدب..

سأتصل به معاتبة، فالعتاب يبدد القهر في سرو في علن أتناديني ألوان الأصيل.. وأنا أدخل بيتها في حذر.. فأجيبها صامتةً في حذر.. يا خوفي على الكرامة أن تبددَ .. بعد ان ترنحت على هضبة اتهاماتها وآن أن تتوقف.. يا حباً أنار طريق الخير آن ان تتجلى.. هنا بلقائها في بيتها أن تتبلور.. وبالعناق الحار والقبل آن أن تكسر كؤوس الشك وتحطم.. ها هي أشعة القمر تشهد ، لبريق العين سرائره وهو يتودد.. والتفكير الرائع بحر يهدر في صوتها يزغرد.. والاعجاب بشكل ومضموني يغرد..

وياللحسن كم مآخذه تجمع القلب للقلبِ.. يجعلنا نخوض غمار الحديث في اللبِ، والشك قد بوأ في نفسها ألماً أيمحوه الحبّ في الزمن.. ونتحدث عن الرغبات التي تتوثب تختلج بكل مظهر تتكالبِ على الخطيئة ما أضحت ديدن الحياة بكلٍ عشق.. حتى اضحى الرجال الصالحون كبش الفداء في نكر.. والمجتمع يعجّ ببذخ العلاقات بلاَ شرعيّة في سر...

بئس ضعف اتصال الناس بربهم يجعل الانحلال يكتسحُ النفوس يهدم الاخلاق في عبث.. لا حبذا الحياة الزوجية ما اضحت على شفا حفرة من اللهب.. بل نبض الحياة الشهوانية قد قيد العلاقات في ظلم..

اسمعها.. انظر اليها باعجاب.. وضوء القمر يسري خيوطاً لماعة على الوجنتين والعنق.. ويعانق خصلات شعرها والازهار في عشق.. واساريرها تتراقص لذكرى الحبيب في وله.. وسراب الشك يلتمع في عينيها في أدب..

فألعن النساء أسأل كيف للنفس المريضة ان تشفى من علل.. فإذا بالندم يلتمع في عينيها في حب.. ويزول سراب

الشك في ليل.. فأنهض باسمة من ألم.. والقلب يحترق في صمت.. ليس على كرامتي الذبيحة من شك يبدده ندم في حب .. ثم يحيا الشك في حذر...

وإنما على القلب من احببته، اخش عليه واقعاً فريسة الشك والندم.

وداعاً قد اعود يا مهجة القلب في يوم... لا بد اعود اليك جسداً يكابد في عجز .. ووجهاً لا يستثيغ النظر اليه ذو لب.. ولن أبكي على الساعات ضمتنا.. بل على الحظ يقسو في ضغط...

* * *

ليرقد الشك في مقبرة الامراض النفسية، لن يمخر الا عباب الكيانات الضعيفة.. ها هي صديقتي مزهوة بأمجاد الحقيقة.. أسمعها وأصفق هاتفة.. أراها عبر الشاشة الصغيرة باسمة.. يعجبني تواتر الحقيقة، فأصغي لحديثها فرحة..

«العادات الاجتماعية السيئة كونت مركباً عقائدياً اصاب النفوس بصراعات تمخضت عنها الاصابة بأمراض نفسية شتى.. كالوسواس والشك والريب والتشاؤم والحقد واليأس.. وهي التي تصيب الناس بإنكار الحقائق، تجعلهم منطبعين على فشلهم في التكيف الاجتماعي السليم».

وأصغي مستغرقة في عشق

«لا شك ان الجمهور المثقف يعلم انّ الشعار الذي عرض في العالم من جانب المتجددين في السنوات بثلاثين هو الرجوع الى الذات» ولكن هل الجمهور المثقف سيوافق على الرجوع الى تراث الانبياء من ارسلهم الله الجبر قصور العقل البشري هل يعودون اليه كأفكار قابلة للتطبيق تهب العقول الوعي، والقلوب الايمان، والضمائر اليقظة والمسلك الاستقامة...»

لا شك انه سينهض من يقول متشرباً الافكار المستوردة نحن في عصر التحرر ؟! والعلمانية.. أقهقه رغماً عني.. بل وبموسيقا مراهقة تمزح في غنج..

أتساءل: أكلمة حق يراد بها باطل...

وأتفوه كتلميذة أمام معلم يثق بها: إنه يريدنا أن نستهلك النظريات الاخلاقية المتناقضة المستوردة؟!

ويعلو رنين موسيقا قهقهتي، امسك الورقة التي كتبت عليها ما سمعت في ود.. أتلذذ في قراءتها وأغمض طرفي منتشية على أمل..

* * *

واستيقظ من حلم اليقظة في خد... وصوتها العذب يدغدغ في جسر: «الطليعة الثورية قادرة على تقصي سفن النجاة دون استهلاك ما هو مستورد من أفكار.. لأنّ أفرادها أناس يتعالى شعورهم دائماً، أفراد قادرون على الاقتباس والابداع، يتخيرون ما يساهم في تقويم الحاضر وبناء المستقبل...»

وأتوفر على التلذذ بأقوالها.. أغمض طرفي سارحة مع امالها أستأنس بتفاصيل أحلامنا... أستر بهروبي الى الخيال خوفي من يقظتي ويقظتها...

وأتساءل: ترى لو جنحت للتحدث هكذا: ألا يتهمونها بالرجعية من تلبس ثوب التحرر... ولو ارتسمت خطاها.. الا يتهمونني بضاربة الخمار في حذر.. تعادي نظريات المدينة والتقدم في رجع...

* * *

وحان موعد لقائي بها.. فإذا بحرقة شكلها وندمها تهدج مخيلتي... فتراجعت عن زيارتها في حب.. واتصلت بزوجها في وجل.. أخبرته عن الم الشك يعصرها في حب... فضحك ونصحني على الصبر في عفو.. وقال مقولته عن طيب: النار ان لم تجد ما تأكله تنطفىء عن ضعف.. دعي سراب الشك يتلاشى في عجز...

فتنهدت عن ألم... من اجل من أحببت في خدر.. فحرام علي ان اوقعها في سراب شك ثم في ندم...

فاعتذرت منه واعتذرت عن لقائها في ادب.. وكالريشة في مهب انواء الآلام وقعت عن ضعف.. وبكيت بحرقة الولهان على من تسكن في الشغاف وفي العقل.. وبكيت على كرامتي تذبح في ظلم... وعندما شعرت أني أكاد أختنق.. سألت الطبيب عن السبب فقال هو الربو قد سكن في الرئتين من الوحدة والحزن..

* * *

المتأمل

بقلم:
د. علي سلطان

وهبطت عليه السعادة أيضاً في مساء ذلك اليوم دونما داع جديد، وتلفت للمرة التي لا عدلها الى غرفته النظيفة المرتبة، وحمد الله كثيراً على تلك الكراسي التي جاوزت منتصف العمر، ومع ذلك لم تزل تبدو في مقتبله. وكان كلما نظر الى «الديوان» الحديدي الجديد احس نحوه، بمودة تلازمه الى يومه الاخير، ولو جاء هذا اليوم بعد دهر طويل.

جلس الى جانب صديقه «المذياع» الجميل، اعز شيء في البيت لديه... الى الاعلى من بصره، سيف مصلت يبرق كالشمس، مد يده، خشي حده، كان من نور، خفض رأسه وأغمض عينيه وهبط الى اعماق الاعماق، اصغى وسمع، ورأى بحاراً من سحر، ثم ذاب سيف النور بعد قليل في حياة السحر، واختفى السيف المصلت، وظل اللحن يملأ الكون...، وفي عينيه تراءت صورة وجه تشايكوفسكي المسكون بالحزن والقلق. آه كيف لهذا العالم الساحر المسحور ان يلبي بلمسة زر في صندوق مكنون، او بحرف في كتاب منظوم، منة كبرى لمن يدرك... وظل غير قليل غارقاً في حلم يقظة تتفتح امامه الازهار الملونة في كل نقلة في جنة لا تنتهي.

رن الهاتف، هز رأسه، ضاع كل شيء وتلاشت الاحلام، أفسدت تلك الآلة الملعونة ظنه في كل عبقريات الصناديق. كان يعلم ان خلف هذا الرنين فحيحاً لا يحتمل... توقف الرنين، لكن ما الفائدة، ثم عاد، كان يعرف، انقطع من جديد، ابتسم بهزء، ثم عاد فانقضت يده بقوة عليه، اغلق فمه قبل ان ينطق كلمة واحدة. احاديث كثيرة متداخلة لم يفهم شيئاً منها، ثم طغا على السطح حديث يتداوله صوتا امرأتين، وكان كلما هم ان يغلق الهاتف يهتز رأسه وتنفتح عيناه باندهاش كبير..

ـ خففي البكاء أو اجليه ودعيني افهم..

ـ يا حسرتي، طعنها بالسكين اربع مرات، مزقت ذراعي اثنتان وانا ارد عنها، وتلقت ابنتي الاخريين في يدها وكتفها.. الدم الدم سال لو رأيت يا ويلتي...

ـ لماذا فعل ذلك، لماذا لم تخبري الشرطة؟

ـ الشرطة! لا.. ستكون بعدها الطعنات في القلبين.. اني خائفة.

ـ لماذا فعل ذلك يا جميلة.. لماذا لاتتكلمين؟

ـ اراد زوجي شيئاً لابنتي، رفضت وأرادت شيئاً آخر، اصر فبصقت في وجهه وفضحته فانتقم، هدد وتوعد بالقتل، اني خائفة جداً.

ـ هل مازال يسكن عندك في البيت؟

ـ سمعت انه يعمل في ملهى، ولا ادري اين يقيم

انقطع الكلام وبدا الخط خالياً، اعاد سماعة الهاتف ببطء كان يفكر بعمق، وبدا عليه الهم والحيرة:

اغلقت ابوابي جميعاً امام مسارب الناس، لكنهم نفذوا من سلك الهاتف عرضاً ومصادفة، لم اطلبهم ولم يطلبوني، لم اذهب اليهم ولم يأتوا الي. لكن يبدو أن صندوق الهاتف قد جمعنا مثلما يجمعني دائماً صندوق المذياع بعالم خالد أو عالم دون.

استلقى على الديوان الحديدي وحدق الى السقف المنخفض، واحس ان روح الفتاة تحوم فوق رأسه قبل ان تفارقها، توجد ولا تستنجد، تثير فيه شوقه الى الحروف والكلام، الى السطوروالكتب... ولو قدر للدم ان يسيل فليكن بلا استسلام، فلعله يثأر لنفسه حتى ولو قبل ان ينزف آخر قطره.. لكن ان تعرف... حقاً هل أعرف.. لكن ان تقدر، حقاً هل اقدر....!

فتش كثيراً بمؤشر المذياع.. ما من شيءفي هذه الليلة يعزي الروح، كله دون، لعن الله صندوق الهاتف... هل لعاقل ان يصل نفسه بآلاف وآلاف من البشر، متى شاء احدهم ان يحدثه فعل بالرغم منه... يا لهذا الامتحان! يبدو اني لن اغفو في هذه الليلة المشحونة.

اصطاد بعد معالجة طويلة بمؤشر المذياع بثاً عالياً رائعاً حلق من فوره معه عالياً عالياً كذروة جبل شاهق حط عليه نسر معمر جداً وكأنه خالد ينظر بصمت وكبر، فيبصر من تحته اسفل الجبل سهلاً فسيحاً زاهي الالوان ملأ الناس ارجاءه ومروجه، وقد انتصب غير بعيد رجل ضخم كأنه قائد مدجج بالسلاح. وبإشارة من يده انقسم الناس نصفين، نصف يدق الطبول وينفخ الابواق وينشد الاناشيد دونه وبين يديه... ونصف يسير في عرض المجد والنصر وكذلك امامه ودونه... يرتج الجبل ويميد على وقع الخطا الهادرة، وتردد الوديان والسهول والاشياء والكون صدى الاناشيد التي تعلن عن تفرد احد الآلهة بحكم الارض وما عليها ومن عليها.. وكان النسر يحدق، فيرى فيما يرى خلائق تتحرك، وكان اذ يبصر يرى اسراباً من نمل هجرت اوكارها.

بعد قليل دق جرس الباب، اصغى باندهاش، لا أصدق ان احداً يقصدني وخاصة في الليل، دق مرة ثانية، تحرك وفتح وتمعن، رجل قوي ضخم تبدو جلياً عليه علائم العجرفة. وبدوره مسح القادم صاحب البيت بنظرة سريعة من أعلى الى اسفل، وركز اخيراً بصره في عينيه، دون سلام:

ـ هل أنت صاحب البيت؟

أجابه باستصغار:

ـ فعلاً على سجيتك.. لماذا تسأل ومن أنت:

ـ انا الساكن الجديد تحت بيتك منذ ايام.. الم تلاحظ وصولي؟

ـ لا، ولا يعني وصولك لي شيئاً.

هز رأسه: لا بأس، أسألك ان كنت تقدر على الاستغناء عن بيتك، فأنت واحد فيه، وانا بحاجة اليه؟

باستغراب شديد: أسف فليس لي مأوى غيره.

ـ قلت انا بحاجة ماسة اليه.

ـ قل ما تشاء، هل تريد شيئاً آخر؟

ـ قد تكون معذوراً في رفضك حتى الآن.

ـ ثم؟

ـ لو تسأل الجوار فقد تغير موقفك.

بانفعال: انا لا افهم شيئاً من هذا العبث.

بثقة: سوف تفهم.

أدار ظهره ونزل السلم.

فكر كثيراً وتنبأ كثيراً، ثم التجأ الى صديقه المذياع، لكنه ظل يمعن النظر الى جدران غرفته ويتأمل الصور المعلقة وما فيها من البحار والجبال والاشجار والازهار والطيور، ثم ينقل بصره الى اشياء البيت القليلة.. من يصدق ان بيتاً مثلك يكون مطمعاً وبغية لغير مثلي... لكن ان كنت تتخيل الجبال والسهول والاسواق والنمل، فإنك تفعل شيئاً كبيراً.. فكر كثيراً قبل ان تتجاوز حدود رأسك وإلا سوف تفهم.. سوف تفهم .. لكن من الذي لايفهم...!

عاد بعد ظهر اليوم التالي من عمله الى بيته حائراً مشتتاً من الاراء الكثيرة التي القاها في سمعه بعض زملائه من قبيل النصيحة والصداقة، وظن بعضهم الآخر وهماً وخيالاً ذلك الذي روى. وكان يكتفي معزياً نفسه ان هذه الدنيا لن تعدم صوتاً ولحناً وحلماً، ولن يضيره دبيب النمل كيف جرى. لكنه رأى بعين فاحصة هذه المرة تلك الحركة التي تجري على السلم وفي بيت جاره العتيد الجديد، أشياء وأثاث وتحف وفرش ينقلها أعوان كثيرون. ادرك الحقيقة ونزع الوهم، لكنه لم يصدق رغم ذلك وظل ينتظر الآتي.

جلس في غرفته، وكان الفراغ اكبر من حجمها. نسي موعد الطعام ونسي ان كان حقاً لديه هذا الطعام. أدار المذياع وتنقل سريعاً غير عابىء بكل الكلام الى محطات يعرفها بدقة. سمع فأصغى بأذنيه وعينيه واصابعه. آه، يدب الخدر في الاعصاب المشحونة فتستريح، وعندما يحل القدر، فلكل حادث حديث... فاذا جاءك كالطاغوت وسور الدنيا من حولك ورفع جدران البئر حتى حدود الغيم فلا تستسلم، وسوف يأتيك وعدي وتعود من غابة الثلج محملاً بالازهار والورود، ولا تخبر عنك الشيطان اذ سوف تحرق نفسك عندما تشعل النار لتدفىء بها روحك وجسمك.. سوف يأتيك الحب فيملأ جوارحك بالحرارة الخالصة.. أغفُ، وغابت عنه الساعة واللحظات.

استيقظ على دقات الجرس، مازال يغمره فيض السعادة ، توجه وفتح الباب، تهلل وجهه وابتسم، الفتاة الجميلة الشقراء تجيء وتبتسم ايضاً.. هكذا مرة واحدة، غابة الثلج والازهار الحمراء والورود المخملية وزجاجة العطر مفتوحة أمامك.. أهلاً وسهلاً ، تفضلي.. تحركت امامه، ورآها تدخل عضواً عضواً، مدت ساقها، ثم ردفها، ثم صدرها وكتفها وبعدئذ يدها، تلوت خفيفة وتبعت اشارة يده الى الغرفة،

دارت في مكانها وجلست على الديوان الحديدي وجلس قبالتها. وحتى تلك اللحظة لم يعرف سبباً لزيارة هذه المرأة الجميلة الى بيته المتواضع. كانت تلك المرة الاولى التي يرى فيها هذه الغادة الحسناء.

ابتسمت وكان حائراً. بادرت بالحديث حالما انتهى جلوسها الى استقرار جسدها يحق لك ان تندهش من زيارتي، ونحن لا نعرف بعضنا، لكني اتيت اصلح ما افسده جارك الجديد الذي تجاوز حد اللياقة معك، لقد عرفت ذلك منه، ارجو ان تقبل مسعاي، هيه تصافينا؟

اجاب مندهشاً وسعيداً: لا يصدر عن مثلك الا الصفاء والفرح، ولن يكون بيني وبينك الا الصفاء، لكن من تكوني له؟

قالت: صديقة، بل قل صديقة زوجته، ولا يمنع هذا ان اكون صديقة للاخرين، هه، هل توافق، كانت تبتسم وعيناها تشعان سحراً.

قال، وكان ايضاً مندهشاً وسعيداً: اسمحي لي ان اقول لك بان مفتاح صول لديك يثير كل المقامات عندي.

ضحكت: لم أفهم، لكنه كلام جميل... أنت لطيف... لو تأذن لي الآن بالذهاب فانا على موعد... سنرى بعضنا .. هيه...

-دون....؟

- ولا قهوة ولا ليمون.

وخرجت مثلما دخلت، وتذكر طويلاً طويلاً ، ورأى شهرزاد تخطر من خلف نافذة، سترتها غلالة شفافة، وخطت به قدماه خطوات قليلة وجلس الى جانب صديقه المذياع، يداعب مفتاح سره، يتمنى لو تنبعث منه شهرزاد وتنزل عن وتر قوس الكمان، ثم تروي حكاياتها الشجية. لكنه ما كاد يستقر قليلاً حتى رن الهاتف، تركه غير عابىء، حشرج، واحس كان به مساً من خارج بيته. مديده، كان هذه المرة ايضاً صوتا امرأتين .. اصغى.. يبدو انه كان ينتظرها امام البيت في الشارع.

- وبعد؟

- تتبعها، احست ورأته عن بعد، هربت وركبت أول لسيارة اجرة وعادت الى البيت.

- وبعد؟

- صفراء ترتجف من الخوف، بائسة وحزينة.

- دعيها تكلمني، قولي لها خالتك تود محادثتك.

- لا تقدر.

- أنا قادمة اليكما في الحال.

- نحن بحاجة ماسة لك، بالانتظار.

وانقطع الاتصال، ظل ساهماً، كان يود ان يحضن صورة المرأة شهرزاد، متفردة وحدها في ذهنه وخياله، تعزف بين يديها تلك الموسيقى العذبة.. آه. وبالرغم من استغراقه في ذلك الخيال، كان صوتا تلكما المرأتين يطرقان سمعه خلسة، يدويان لحظة ثم يغيبان وبعد قليل يعودان. انتبه الى ذلك الموقف ورأى انه يستحق التفكير الجدي.. لكن اية مصادفة غريبة ان يسمع حكاية متتابعة.. لا، ليس حكاية، انها مشروع جريمة قتل بطلها زوج ام الفتاة المرصودة للقتل. لمَ لا اخبر الشرطة، لكن اين الدليل، وهل سيصدقونني ام يرونني حالما كما يعرفني الآخرون، لكن لوحدثت الجريمة، فأي مذنب اكون، لكنني لا اصلح لمثل هذه المواقف الخطيرة اكثر مما ينبغي. لماذا لا تكون شهرزاد وحدها.. حتى انت يا احلام يقظتي غدوت عسيرة المنال. فكر كما يريد سيرن الهاتف. لأستلقِ قليلاً، فلعل خاطراً يجول في رأسي وأحل اللغز، حقاً هو لغز.

واستراح ثم اغفى طويلاً حتى نضج رأسه وانتفخت عيناه، هكذا احس ،

فالدنيا ظلام وهو في الليل. اشعل الضوء وذهب للمغسلة، رأى وجهه في المرآة، ضحك وضحك حتى شبع، غسل وجهه مرات كثيرة بالماء البارد، وكان في كل رشقة يحس بالانتعاش اللذيذ والبراءة. امسك بالمنشفة وقبل ان يفرك وجهه، دق جرس الباب، فتحه، كان جاره العنيف واقفاً كفزاعة الطيور وعيناه محدقتان كعيني ديك. ودون سلام ولا مقدمات قال بلهجة متعالية: هل سألت؟

دهش المتأمل وكانت قطرات الماء ما تزال تسيل من شعره الى جبينه الى عينيه: وعاوده الضحك الطويل العالي، وكان ضحكه يعلو كلما فرك عينيه بالمنشفة ثم ازاحه فيراه مجرد ديك لا أكثر.

سمع السؤال بقوة مرة ثانية، هل سألت؟

صمت بجد وقال: عن أي شيء؟

ـ عني؟

ـ لا، لا أحب أن أخطب مثلك ولا أخطب ودك.

صرخ، أتهزأ بي؟

برزانة: أنت الذي تزري بنفسك

ـ سترى.

ـ وسوف اقتني هراً يكمن لك ويليق بمقامك، هيا انصرف.

أدار ظهره وانصرف، هز صاحبنا رأسه وتمتم معجباً وهو يراه نازلاً، كم مدهش سلوك الجبناء! لكن انصياعاً سريعاً مثل هذا قد يحمل لي خبثاً ولؤماً ومؤامرة تؤدي الى اغتصاب بيتي. وظل الامر لغزاً حتى برأي الأصدقاء الذين رأى في اليوم التالي. رفع قليلاً من درجة الانتباه والحذر.

تلفت الى صديقه المذياع، وما ان تقابل الوجهان، حتى همس بسمع صاحبه، فاستجاب هذه المرة في لحظته. وما كادت تنفتح بوابات الغابة العذراء حتى استلقى بقدسية يسمع ويرى في فرحة بين الاشجار العملاقة رؤوس وحوش هائلة، وكانت دقات الطبول تقرع ارجاء الغابة، وتعلن الأبواق وصول موكب الضحية. وانبثق من خلف الاشجار رجال يغطون أوساطهم بخرق قصيرة، وأخذوا يقفزون ويرقصون، يقعون ويستلقون، تتطاير ايديهم وأرجلهم من حولهم، وتشكل شعورهم غابة اخرى حين يلتصقون. يصل الموكب، تصخب الموسيقى، وتبرز في الطليعة فتاة صبية والى يسارها امرأة جميلة والى يمينها رجل كريه. وجاء موكب آخر في طليعته شاب وسيم وحوله نساء جميلات. صمتت الغابة وشعت العيون وصرخ الرجل بالفتاة ان تلقي الكأس حتى تزهر الغابة ويرضى الربيع. تقدمت الفتاة الى الرجل الوسيم، مدت يدها بالكأس وحدقت الى عينيه، كانتا ساحرتين وديعتين. تطلعت الى الارجاء الاخرى عيون وحوش وأدميين متوحشين، لا تزهري ايتها الغابة من اجل هؤلاء الوحوش وعلى اشلاء ذلك الوسيم. اعادت عينيها الى عينيه، لم تستطع صبراً فرشقت الكأس بوجه الرجل الكريه والمرأة فاختفت الوحوش وامتلأت الغابة ازهاراً ووروداً، ومشت و مشى الى جانبها وغمرته السعادة ثم اغفى على سريره الحديدي.

استيقظ تملأ نفسه راحة لذيذة. اعد فنجان قهوة، وكان يستمتع بكل رشفة وكأنها الرحيق. وتملكه احساس عذب

وتفاؤل دون أن يدري تحديداً لتلك المشاعر. ومضى عليه بعض الوقت كان يعد فيه نفسه للخروج والمشي الممتع في الشارع الطويل. دق جرس الباب، توترت اعصابه وتلاشى مرحه وتفاؤله، وحسب شراً من جاره الجديد. فتح الباب ، عادت اليه البسمة اذ رأى شهرزاد بأحلى صورة لها ومعها فتاة اخرى. فوجىء، استدركت قائلة: أسفة ان اتيناك وانت تهم بالخروج، كنت بالجوار وبصحبتي صديقتي لميس، احببت السلام عليك، رجوتها...

ـ أهلاً وسهلاً بكما في بيتي المتواضع، تفضلا.

دخلتا، صورة الامس ، جلستا، لا شك حظ طيب، نظرت اليه تلك التي تذكره بشهرزاد نظرة مغمسة بالحنان وقالت: أتيت في الحقيقة اعتذر من جديد عن تصرف جارك الجديد جابر. لقد لمته كثيراً وعاتبته، كانت بداية سيئة منه نحوك.

قال: لستِ ملزمة بالاعتذار عنه، وما أرى بينكما شبهاً، هو في غاية الاعتداء والغلظة، وانت في غاية الادب والرقة، ولم اجد لمسلكه السيء سبباً.

ابتسمت وقالت: شكراً على رأيك الطيب بي، أما هو فإنه يفعل المستحيل ليحصل لي على بيت مجاور لبيته، مع اني رفضت اسلوبه ولم اكلفه بشيء. اطمئن يا أستاذ، اسمي المتأمل، المتأمل، وثق بي يا صاحب الاسم المطمئن...

داعبها ضاحكاً، كلمة حلوة منك تمحو عشراً من سيئاته، بذا سيظل رصيده كبيراً ضدي، ومع ذلك فإني احس انني الرابح.

ـ آه ، لا تبالغ

ـ هو إحساسي.

ـ شكراً، أنت طيب ولطيف، وأود الآن أن أتم أمراً، فهل تسمحان لي بالنزول الى بيت جابر، لن أتأخر.

نهضت ونهض، ومشى خلفها حتى الباب. كانت لميس مذهولة مما تسمع وترى. رن كعب حذائها على السلم. عاد، جلس ورحب بلميس مرة اخرى، وشكرت له حسن استقباله. تذكرت حديثه مع السيدة سماح منذ دقيقة، تطلعت اليه فأيقنت انها امام رجل طيب لا يستحق التآمر عليه او العدوان. التقت عيناها بعينيه، رأت فيها بحراً صافياً يمخر ماءه بأمان كل عابر ودون زورق. ودت لو تعرف عنه شيئاً، بحثت عن فاتحة للحديث، لا بد يمر عبر سماح، قالت: مع انك صديق لسماح، لكنها لم تذكرك امامي.

سره ان بدأت الحديث: أعرفها منذ يوم او اثنين فقط.

ـ فقط؟

ـ فقط، هل احلف؟

ـ لا لا أبداً.

ـ وأنت معها؟

ـ آه ، معرفة قديمة وصداقة رغم اني لست كبيرة.

مبتسماً : هنيئاً لكما، وكان علي واجب شكرها اذ عرفتني بك.

ـ وكذلك انا، وأحسست بالراحة والاطمئنان وتابعت: اعذر فضولي، لو حدثتني قليلاً عنك.

ابتسم: ليس عندي الكثير، والذي عندي لا يثير، موظف، اسمع الموسيقى في البيت هذا الذي املكه وكفى.

قالت: تحب الهدوء مثل بيتك العالي.

ـ صحيح، وأنتِ؟

ـ رغم تواضعك فلك مملكة، أما أنا فطالبة تعاني كل شيء بدءاً من البيت، ولن احدثك اكثر، قد تكون ظروف اخرى بيننا.

ـ كما تشائين، ما رأيك بالقهوة؟ـ كما ترغب.

ما كاد يتحرك حتى دق جرس الهاتف، رفع السماعة واصغى، عجيب هذا الهاتف، لم ينقل لي منذ ايام الا صوتي هاتين المرأتين. كذا وجه كلامه الى لميس. قالت: قد يكون خطك متشابكاً مع آخر، اسمع، لقد تذكرت، رأيت جارك الجديد يعبث بخط نازل ويصل به خطه، قد يكون خطك وتسمع ما تسمع، ربما...!

دهش بقوة واصفر لونه، كيف لم يفطن لذلك من قبل، وخاصة فجاره لا يملك خط هاتف... لكنه صمت وتابع الاستماع، صوت امرأة، هي عندي في البيت. صوت الآخرى، يجب تواريها، يجب ان ننقذها، هو يترصدها:

انقطع الصوت، اطرق رأسه وبدا عليه الوجوم والحيرة، طال السكون وكأنه قد نسي وجود تلك الصبية التي كانت تراقبه بصمت واندهاش. كاد ان يدخل في عالم خياله على ايقاع عالٍ وحزين عندما رده عنه صوتها الهادىء:

ـ تأثرت كثيرا بما سمعت يا أستاذ، بدا ذلك جلياً على وجهك.

رفع رأسه:

ـ آه، آسف من أجلك، حقاً لقد سمعت امراً خطيراً.

قالت: ليتك تذكره لي اذا كان لا يضير.

قال لا ، أبداً ، قصة تتكامل عبر الهاتف هذا مرات عديدة. رجل يحاول قتل ابنة زوجته لانها رفضت رغبة له، لا أدري ما هي، يبدو انه «عديم الاخلاق»، وأمها تحاول اخفاءها وابعاد الخطر عنها. والذي يقلقني اني لا اعرف كيف امنع الجريمة، لا أدري كيف ، هز رأسه ، كيف ترين؟

يا الله، ظل بصره معلقاً على وجهها الذي كان يفقد في لحظته لونه الابيض وبهاءه النقي. تحولت الى صفراء شاحبة، ارتجفت شفتاها وتولدت على جبينها قطرات من العرق. قدّر لفوره ان نوبة من مرض قديم قد فاجأتها تلك اللحظة بسبب الخبر الذي سمعت، لم تحتمل. اقترب منها: خيراً يا آنسة،

كيف أساعدك؟

أشارت بيدها: لاشيء.. لا شيء.. سأكون بخير.

ـ أعد لك شيئاً؟

ـ فنجان القهوة ومع الشكر.

وحين عاد كانت قد استردت بعض شكلها، سألته: ماذا كنت تفعل لو كنت شاهد عين وأنت الآن شاهد سمع من بعيد؟

دهش : شاهد عين، كيف ، وماذا يجمعني بالرجل؟

ـ لو حدث؟

ـ امنعه او احاول على الاقل، لكن هل تتخيلين نفسك تلك الفتاة، او مكانها؟

ـ كل شيء جائز، فالاحداث ليست مقتصرة على رجل او فتاة بعينهما.

قال: مازلت تحت التأثير، نشرب

القهوة.

دق الجرس وعادت سماح، فسر لها المشهد وشربت معهما القهوة، تلفتتت اليه بحنان وقالت:

بودي لو أسألك معروفاً، لكن يمنعني الحياء والخجل والحرج من رجاء غير مألوف.

اجاب باندهاش شديد ان يراه احد على هذا القدر من الاهمية: مني انا، لا يا سيدتي لا تتحرجي، فأغلى ما أملكه هي احلامي وهذا المذياع وأنا بالطبع.

ضحكت: ليس بالضبط، لكن شيء منه.

كانت ليس تصغي بانتباه شديد الى الحوار، وكأنه يدور عن شيء يخصها بالذات. كانت ايضاً حائرة في اي قدر ستوضع عندما يتابع الحوار جملة او جملتين. كم تذل المواقف اناساً وكم ترفع المواقف اخرين: آه مما لا يملك حرية الاختيار، بئسها الأيام والاحوال.

قرع جرس الباب بقوة هذه المرة، وتتابع القرع، واحس لفوره انه يسمع دقات القدر العنيفة تقرع بابه، وقدر انها كانت عنيفة لان بيتهوفن كان في طريقه الى الصمم. لكن من الطارق في هذا الليل؟؟

فتح الباب، لكن هذا قذر وليس قدراً. وجه صفيق وبصر وقح ونظرة عاهرة ورائحة خمرة تفوح من نتن. وما ان رأى المرأتين حتى اندفع نحوهما بعنف صارخاً يا بأرذل الكلمات. وسريعاً ما هوى بسكين على الفتاة، حرفها المتأمل بذراعه عن صدرها، فسال دمه ودمها، وتتابع العراك وعلا الصراخ، وفتحت أبواب الجيران، واندفع بعضهم وقبض على المهاجم، لكنه كان يصرخ بوقاحة: كيف تقبلون بالرزيلة تجري بينكم، عاهرات، فاسقون، بلا شرف..

وظهر جابر بعد قليل وقال: لا يتحرك احد، لقد استدعيت الشرطة... وكان بعضهم يعالج الجروح.. وخرجت سماح ممتقعة يسيل الخوف والغضب على وجهها، سألت المهاجم: كيف عرفت اننا هنا؟

قال بصلف:

أخبرني هذا الرجل، جابر الشهم.

قالت: هل تعرفه من قبل؟

ـ لا: لقد استدعاني بالهاتف واعطاني العنوان وانتظرني عند باب العمارة.

سألت جابراً غير مصدقة أصحيح يا جابر، هل كنت تتصنت علي وانا اتكلم من بيتك بالهاتف وعلمت ما علمت؟

قال وكأنه نفذ حقده: فعلت ذلك من اجلك، خفت عليكما من هذا الثعلب، وجاءت مناسبة للتخلص منه، لقد وعدتك بيته.

قالت: لكنه رجل طيب، فكيف ابحت لنفسك ذلك، أنت شريك ايضاً في الجريمة وسيعرف الجميع الحقيقة.

وصل الشرطة، وقادوا الجميع، واستبقوا بعد التحقيق الاثنين في السجن. وبعد أيام كان المتأمل مستلقياً يحاول وصل خيوط الحكاية، ما عرف منها وما غاب.. ما أجمل ان تسردها على مسامعه شهرزاد. ليبعد الآن الحلم، فهي على موعد معه بعد حين... وعندما جاء هذا الحين دقت ، فتح ودخلت، طلب منها راجياً ان تجلس امامه وتحكي الحكاية من أولها ويظل صامتاً يراها ويسمع قوس الكمان يعزف سحراً من فمها الجميل.

منَ النّورِ نارا!!

محمّد زكريّا الزعيم

في ليلة عيدٍ حالمة في رحاب اللّيالي والأسحار، حيث يطيب السّمر، ويطرب السُّمار أقبلت تخطر بالحليِّ والحلل تعبق بالمسك، وتموج بالحسن كأنّها لينةٌ باسقة تكتسي برود سندس خضرٍ وتتزيّن بعقود لآلىء الزّهر. أطلّت على السّاهرين ربيعاً يبعث في نفوس الحاضرين الدفء والبهجة والحنين في ابهى صورة، وأجمل رواء. فقام اليها نشوان، وكأنّه يرى الجنات ألفافاً. فما إن وقعت عيناها عليه حتى هرعت اليه زهرةً فوّاحةً تؤثر من تهوى بالحبِّ والطّل والرّحيق!.. وطاف بعينيه حول كعبة الحسن، ولسانه يلهج بذكرها في مناجاة عذبة، ووشوشة حالمة!..

يا من حارت في بهائك ألالباب وتاهت في محاسنك الانظار.. كلُّ ما يلوح منك ساحرٌ أخّاذ كلُّ ما يصدر عنك ساحر فتّان.. يا من تطلّين إطلالة الفجر وتبزغين بزوغ الشمس.. يا من تتضرجين تضرج الورد وتتلألئين تلألؤ النّجم.. أسألك بنور وجهك الذي ينير ظلمات الصّدور.. وترف لطلعته المهج والقلوب ان ترفقي بجفني المقرّح وقلبي الملتاع.. فبين جوانحي جرح لا يبرأ ووجدٌ لا يبرح!.. وعواصف لا تهدأ! فمع أيامي يتجدّد الجوى وتتوالى الأوصاب!.

يا منية القلب: ويا حلم اللّيالي: يالَشدّة في الشوق ما أكابد كلّما فني لي في هَواك قلبٌ أبدلت به آخر. فياليت شعري: هل قُدّر لي أن أخلد في لظى النّار ووهج الحرور؟ أم تراني أعذّب بنور الحسن كما يُعذّب الكافر بنار الكفر؟.

أليس من النّار النّور؟؟.

أم أنا تائهٌ مسحور؟!.

أجيبي يا عروس الحور!.

يا عروسَ احلم! يا سرابَ الأماني.

حسبُ من يتعرّض لشمس الضحى لفح حرّها ووهج نورها.. ولكن: أين هذا ممّن تظلله أشعة الحسن ويغمره ألق البهاء!.

فما أقصر عمر من عاش بين نور ونار. ففي ذلك يتجدّد الجوى، ويخلد القلب في اللّظى.

وكانت من جانبها تهشُّ للقائه وتطرب لنجواه فتتفتح جوانحها لكلماته تفتُّح براعم الورد لأنفاس الفجر. وتحسُّ خدراً في أذنيها وكأنّ قطرات خمر تتسايل من سحائب أحزان قلبه في أصداف أذنيها فتقع كلماته في مسامعها رُقية أحزان وأكسير سلوان لايملُّها القلب ولا يجتويها السّمع!.

وترتعش أوصالها فتحسُّ دبيب النّشوة، وخدر الهوى يسري في أوصالها أو ماء الحياة يجري في عروقها.

ومن مظاهر حسنها وإلف عادتها، أنّها اذا استمعت اليه وطربت لنجواه تضرُّج اللّهب حمرةً على خدّها، وارتسم الهلال مفتراً على ثغرها، ومالت برأسها بدلٍ وخفر، وكأنّها شمسٌ تجنح للغروب!.

وفجاةً أطبقت على فمه وسألته مداعبة:

«أنا عروس الحور، ولحن الخلود، نسيجُ وحدي. من خيوط الحسن نَسجُ ملاحتي. لا أقبل شبَهاً، ولا أرضى نظيراً. فما بالكَ تجعلني للطبيعة مرآةً، وللرّياض ظلالاً؟ فبعثت فيها الحياة، وأورثتَ محاسني الجمود والسكون!؟ فخالطه من سؤالها سرورٌ لا يوصف كأنه فيه بعض أسرار السّماء، وهو تائهٌ حائر يودُّ أن يعرف موطن الحسن فيها. أتراه في سرعة الخاطر، أو لطف الشّمائل أو جمال الملامح؟؟ ولكن هيهات! هيهات!.. واستفاق من شروده ثُمّ طوّق بيده

معصمها، وكأنّه يستمدُّ منه عوناً وأجاب:

ليس الأمر كما ذكرت يا مَنْ استأثرت بالحسن والملاحة من بين سائر حسان الأرض، وعرائس السّماء. فمعاذ الهوى أن أقرنك بشيء مهما حلا...

ولكنّي أحبُّ أن أرى ما توحيه طلعتك الجميلة من معانٍ لا توصف، وإيحاءات لا تدرك متمثّلاً في لوحة، أو صورةٍ تلذُّ العين رؤيتها، وتفتن القلب محاسنُها فلم أقع على ما هو خيرٌ من قسمات الطّبيعة، وصور الوجود لتكون لك مرآةً ولمعانيك صوراً.

فللكبرياء مثلاً خلقٌ ذميمٌ، ولكنّه يغدو في جلال طلعتك «ممثّلاً بزهو الطاووس» سحرٌ مبين.. فتضاف الى معرض الحسن صورةٌ جديدةٌ لا عهد للعين بها ألا وهي «فتنة الكبرياء!».

وهكذا نرى أنّ لإطلالتك السّاحرة ولإسفار وجهك آثاراً في النّفس ومعاني في الفؤاد، مما لا يتمثّل في خاطرٍ، ولا يرقى إليه خيال!.

ومن أراد استشعار بعض ظلال تلك المعاني فلينظر بعين المؤمّل المتأمّل إلى إطلالة الفجر، وبزوغ القمر، وتلألؤ الثّريا. فمعاني الحسن وآثار البهاء لا تشفّ عن اسرارها إلا ظلالاً وغماماً. ومن رام أن يستشفَّ معاني فضيلة الحياء ومكرمة الخفر التي يصطبغُ بها وجهك الفتّان فليقع عليه متجلّياً في تضرّج الورد وتوردّ الجمر.. أليس كذلك يا أخت البدور!. الحياء في معجم الفلسفة فضيلةٌ ولكنّه اكتسب على صفحة خدّك الأسيل انتماءً جديداً فاستحال في عالم الفن صوراً قشيبةً من السّحر والبهاء في معرض الحسن والجمال!.

أما ما يبدو للنّاظر من رشاقة قدّك، ووقع خطوك، ولطف التفاتتك، وميس قوامك. فليس من نواميس الكون التي تقوم الحركة فيه على أداء وظيفة كونية معيّنة تتولّد عن تلك الحركة، فلا تثير انتباهاً، ولا تحرّك وجداناً!.. أما الحركة عندك فهي لغةٌ من لغات الرّوح، وشكلٌ من أشكال الجمال، وحرفٌ من أبجدية الحسن...

خُلقتْ لتهييج إيقاع القلوب، وتدغدغ أحلاماً ترفُّ لها الأرواح في الصّدور. فتحلّق في جواء الهناءة «صافات ويَقبِضنَ ما يُمسكهُنّ إلا الرّحمن»*.

الحركةَ عندك تحرّك بحيرة الفؤاد الساكنة لتثير في آفاق الصّدر أنفاساً رطبةً مخضلّةً بعطرِ الأمل.

الحركة عندك رياحٌ لواقح تنقل نفحات الهوى بين أزهار القلوب فتثمر بأروع قصص الحبّ والهوى...

الحركة عندك تجعل الأفئدة مشدودةً إلى مصدر الفتنة في عينيك كما يشخص النّبت الى مصدر النّور والضياء!.

الحركة عندك تجعل القلب يدور في فضاء الهوى، وينزلُ في منازل الحسان. ولكنّك تبقين شمسهُ لا ينزل إلا في منزلك، ولا يدور إلا في فلكك «مادامت السّموات والأرض!».

ومن استعذب أنغام الموسيقا، فلا مطمع له بأكثر من نغماتٍ تُشنّف الأذن، وتطرب الأسماع.

ولكن يالسعادة من أصاخ السّمع إلى همسات صوتك الرّنان!.

فمع كلّ همسةٍ من ألوان الحسن، ينعكس على صفحة وجهك الفتّان معنىً من معاني الفتنة والأنوثة، ويرفُّ ظلالاً زاهيةً على أسيل خدّك النّاعم الأزهر. فلا يدري القلب إلى أين يميل. أإلى نغمات السّحر عند همسات الثّغر؟؟؟.

أم إلى ومضات السّحر عند تألّق اللّحظ؟؟؟.

وإذا ما تأمل مشوقٌ وردةً في روضها، لعلّه يرى فيها بعضَ ملامح من يهوى فلن يحظى إلا بعطرٍ ممسكٍ، أو عبيرٍ فواح!...

ولكنْ - وياللخيبة ما أمّل - هلا استروح تضوعُ السّحر، وفوح الفتنة، وجلال الأنوثة من زهرةٍ لا تذبل، وبهاءٍ لايزول!..

قصة قصيرة

من أدب الخيال العلمي

نهاية

تأليف الكاتب الأمريكي:

فرانك ليلي بولاك

ترجمة:

سقار بدر عبطو

هذه القصة من افضل القصص التي تنبأت بنهاية الكون، ظهرت اولاً في مجلة (آرجيسي) في حزيران ١٩٠٦. قصص المأساة كانت العنصر الرئيس في الذي سيكون فيما بعد أدب الخيال العلمي، لكن قصة (نهاية) كانت مختلفة، خصوصاً الاسلوب المؤثر وروعة هدوئها.

المؤلف (فرانك ليلي بولاك) كتب ايضاً قصصا اخرى متعددة التي وصفت كأدب الخيال العلمي، تضمنت /الأفة القرمزية اللون/ عام ١٩٠٥ ثم /مدمرّ الكون/ عام ١٩٠٨.

قال /دافيس/ متذمراً وهو ينفق وقته امام النافذة في بناء العلوم الفيزيائية: أصبحت مُرهقاً، واشعر بالنعاس. تجاوزت الساعة الحادية عشرة ليلاً، وهذه الليلة الرابعة التي اسهرُ كي أشاهد نجمك الجديد، وستكون الليلة الاخيرة.

لماذا لم يظهر النجم، قد انقضى على موعد ظهوره ثالثة اسابيع.

سأل /ايستوود/: هل انت متعبةُ أنسه /وردور/؟

القت الفتاة نظرة عجلى مع جفلة سريعة ودمدمة سلبية.

مرة أخرى احدث /ايستوود/ انعكاساً جديداً، انها بالتأكيد قد جفلت متألمةً. وعلى الأغلب تبدو خجولة، شعرها جميل بخواصه النادره، ناعم كالحرير وملون كالبريق. ايضاً ربما لديها قدرات عقلية ذكية. كان /ايستوود/ قد شاهدها تقرأ بافراط كتباً غامضة، وكانت تبدو لا تعطي التسليات بعض الاهتمام.

كان عملها اليومي ضمن فئة فنون الطلاب، وبالتالي طلب منها مع /آل دافيس/ مراقبة النجم الجديد من نوافذ المختبر في الطابق الاعلى.

استعلمت السيدة /دافيس/ وهي تكتم تثاؤبها: برفسور، هل تفكر حقاً ان النجم ذو أهمية كي تنتظره مدة أطول؟

كان /ايستوود/ الى حدّ ما متضايقاً من اخفاقه المتواصل بعدم ظهور النجم الجديد.

وقد كرِه مناداة (برفسور)، في الفيزياء يوجد فقط مساعد برفسور.

ـ أنا لا أعرف، أجاب باقتضاب. هذه الليلة الثانية عشرة التي انتظر ظهوره. طبعاً، سوف تحصل معجزة رياضيات اذا تمكن علماء الفلك من حلّ مسألة معقدة

تماماً، على الرغم انهم كانوا يأخذونها بعين الاعتبار مدة ربع قرن.

كان بناء العلوم الفيزيائية الجديد في جامعة كولومبيا يتألف من حوالي اثنى عشر طابقاً. المختبر يحتل الطابق التاسع والعاشر، غرف الفلكي فوقهما، هذا الترتيب كان مستحيلاً قبل اكتشاف زيت مُهمد اهتزاز الصدمة، الذي يعزل بشكل عملي غرف الآلات عن الأرض.

رتب /ايستوود/ التلسكوب الصغير على النافذة، وفي الاسفل انتشرت الخارطة المضيئة لمدينة /نيويورك/ العظمى، تطلق عالياً جلبةً موسيقية متواصلة. جميع الشوارع مزدحمة، كالليالي السابقة منذ الخامس من الشهر عندما كان من المتوقع ظهور النجم الجديد الكبير، أو الشمس.

خطأ ما قد وجبَ أخذه في الحسبان - بالرغم من - كما قال /ايستوود/ ان علماء الفلك اخذوه باعتبارهم مدة خمسة وعشرين عاماً.

في الحقيقة، أربعون عاماً تقريباً، منذ ان اعلن في البدء البرفسور (ادولف بيرنر) نظريته عن الكون المحدود في المؤتمر الدولي للعلوم في باريس، هناك اعتُبرت نظريته اكثر بقليل من الطرفة للخيال.

لم يكن يعتقد (البرفسور بيرنر) ان ذلك الكون لا نهاية له - في مكان ما - حاول ان يبرهن، يجب ان يكون للكون مركز، حيث يكون محوراً لدورانه.

القمر يدور حول الارض، النظام الارضي يدور حول الشمس، النظام الشمسي يدور حول أحد النجوم الراسخة، وهذا النظام في دورته يدور بلا ريب حول موقع ما اكثر بعداً. لكن هذا النوع من المتوالية يجب ان تتوقف بلا شك في مكان ما. مكان ما، هناك يجب ان تكون الشمس مركزية، ضخامة الجسم المتوهج الذي لا يتحرك مطلقاً.

وكما تكون الشمس دائماً الاكبر والاشدّ حرارة من اقمارها، لذلك يجب ان يكون الجسم في مركزالكون ضخماً ودرجة حرارته تفوق معرفة اي شيء أو تصوّر.

كان الاعتراض على ان هذا الجسم الافتراضي سوف يكون منظوراً من الأرض بسبب ضخامته، والبرفسور (بيرنر) أجاب ان ذلك يوماً ما سيكون منظوراً بلا شك. ببساطة لم يحن الوقت كي يصل ضوءه الى الارض.

انتقال الضوء من النجوم الثابتة الاقرب مسألة ثلاث سنوات، وهناك يجب ان تكون بعض النجوم بعيدة هكذا وشعاعهم لم يصل الينا بعد. مركزية الشمس الهائله يجب ان تكون كذلك بعيدة بلا تصور، ربما مئات، ربما الاف من السنين ستنقضي قبل ان يظهر ضوءها للعيان على النظام الشمسي.

كل ذلك كان ينتظم بازدراء ضمن مكان «براعة الصحف» حتى النهضة الرياضية الرائعة قليلاً بعد منتصف القرن العشرين التي اعطت المعاني لتثبت ذلك.

تلت النظريات الجديدة اكتشاف من قبل البرفسور (بورنسايد) من /برنستون/، وطُوِرَ من قبل الدكتور (تانكا) من /طوكيو/، نجح علماء الفلك في حساب قياس القوس من حركات الشمس خلال الفضاء ونسبته الى مدار الاقمار التابعة لها. استناداً لهذا كمبدأ اساسي، كان من الممكن اتباع اتساع الدوائر للانظمة المتعاقبة للاجسام السماوية ودورانها. نظرية البرفسور (بيرنر) تثبت صحتها. وكانت قد برهنت ان هناك

حقيقة الكتلة الهائلة لمادة متوهجة، التي، فيما اذا النقطة المركزية للكون بدت موجودة بدون حركة، ام لا. كان الوزن والبعد لهذه الشمس الجديدة، محسوبين رياضياً على وجه التقريب، وسرعة الضوء معروفه، وافتراض موعد وصول الضوء الى الارض كانت مسألة سهلة.

اذن فرضية وصول ذلك الضوء الى الارض، خلال ستة وعشرين عاماً، ثم الستة والعشرون عاماً قد انقضوا.

انقضت ثلاثة اسابيع على موعد توقع ظهور الجسم السماوي الجديد، وهو لم يظهر بعد. صحف ومقالات مجلات كثيرة أثارت الاهتمام الشعبي، كانت الشوارع مزدحمة ليلاً بحشود هائجة مزودة بمناظير دار الأوبرا، بينما ثبّت في كل زاوية التلسكوب اداة منصبه الثلاثي القوائم.

صور متشابهه في كل مدينة متحضرة على الكرة الارضية، من المتوقع ظهور ذلك الجرم السماوي في مدى حوالي نصف يوم بين (ڤينوس) و(القمر).

افضل شكلاً اعطي له، أشخاص توقعوا شيئاً ما مثل الشمس، والمؤسسات الرأسمالية استأجرت مناطقاً كبيرة على شاطىء (غرينلاند) في توقع لإرتفاع كبير في درجة الحرارة ونشاط السكان في الجزء الشمالي. حتى مواقع العمل كان بالامكان ادراكها متأثرة بشكٍ علني واهتياج، والطائفه الدينية الثانوية تنبأت بجرأة النهاية للكون.

لقد نلت ما يكفي من هذا، قال /دافيس/ وهو ينظر الى ساعته ثانية. هل انت جاهزة للذهاب، (غريس)؟ والشيء بالشيء يُذكر، ألم يصبح الجو دافئاً؟

لقد كان يوم شباط قارساً، لكن درجة الحرارة ترتفع بالتأكيد.

كان الماء يسيل من الاسطح بشكل قطرات، ومن الكتل الجليدية المدلاة الناشئة عن تجمد الماء اثناء تقطّر تلك الهدابّه على اطراف النوافذ، وكأن موجة الدفء وصلت فجأة.

فجأة سألت /آليس وردور/: ماذا يكون ذلك الضوء؟ الضوء الذي يتوانى قرب النافذة المفتوحة.

قال /ايستوود/: يجب ان يكون ضوء القمر، مع ان اضاءة الافق كانت تشبه ضوء الفجر تقريباً.

تخلى /دافيس/ عن عزمه بالرحيل، ثم شاهدوا الشرق يصبح باهتاً تدريجياً، وتوهج، حتى اخر القرص الشمسي الابيض اللامع قذف نفسه فوق الافق.

انه يتشابه مع القمر الكامل، لكن لمعانه يضاهي ثلاثة اضعاف لمعان القمر، واصبحت الشوارع تدريجياً وكأنها خلال النهار تقريباً.

- يا للسماء، ذاك يجب ان يكون النجم الجديد، برغم كل شيء. قال ذلك /دافيس/ بصوت رهيب.

- لا، هذا يكون القمر، هذه ساعة ولحظة شروقه، أجاب ايستوود الذي ادرك سبب الظاهرة. لكن الشمس الجديده يجب ان تكون قد ظهرت في الطرف الاخر للكرة الارضية.

ضوءها جعل القمر لامعاً هكذا. سيشرق هنا تماماً مثلما الشمس تفعل، لا تكون شديدة التأثير لحظة الشروق. يجب ان يكون ساطعاً اكثر مما كان متوقعاً - وربما حاراً - أضاف بارتباك غامض.

قالت السيدة /دافيس/ وهي تخلع سترتها: الا تستطيع ايقاف التدفئة البخارية؟ لقد حصل دفءُ شديدٌ.

أوقف /ايستوود/ التدفئة، حيث - على الرغم من النافذة المفتوحة - اصبحت

الغرفة لا تطاق.

بدا أن الدفء يدخل من الخارج وكأنه دفء مساء يوم ربيعي. والمدلاة الثلجية كانت تتحطم متحررة من الأفاريز.

انحنوا من النافذه لمدة نصف ساعة مع محادثة متقطعة، وفي الأسفل كانت الشوارع سوداء مع الناس الذين ابيضّوا عند رفع وجوههم الى الاعلى. ارتفع القمر الساطع، وازداد الشعور باعتدال الليل. كان ذلك بعد منتصف الليل عندما لاحظ /ايستوود/ في البدء توهجاً أحمر يلوّن غيوماً منخفضة في الشرق، ثم اشار اليها يلفت نظر رفاقه.

ـ واخيراً، ذاك يجب ان يكون النجم الجديد، شرح /ايستوود/ مع ارتعاش لاستجابة الاثارة الى ماذا كان قاصداً معرفته، حدثٌ كوني لم يُسبق الى مثله في القوة.

ازداد السطوع بسرعة.

ـ بحق «جوبيتر»، انظر انه يتلون بالأحمر! هتف /دافيس/ فجاة.

اضاءته اكثر من ضوء النهار ـ وحار! يا عجباً.

اسماء في الشرق توهجت بلونٍ قرنفلي يعمقُ مساحة نصف دورة حول الافق.

سقسقت العصافير الدوري من السطوح، وبدا القرص الشمسي للنجم المجهول متوقعاً في اي لحظة الارتفاع فوق «الاتلنيتك»، مع انه تأخر طويلاً.

واصلت السماوات بالاشتعال مع تدرج بالوان لا تُعدّ ولا تحصى، تجمعت اخيراً بأتون ملتهب يتوهج على خط السماء. صرخت السيدة (دافيس):

العلم الامريكي يطير مع الريح بحريةٍ من ساريته فوق سطح البناء الشاهق واندفع فجأة ضمن اللهيب.

في الشرق وبشكل منخفض امتد خط طويل من نار كثيفة رحبَ الافق عندما كانوا يحدقون بعيون مبللة بالماء ومغمضة نصف اغماضة. اشتدت حرارة طرف الكون حتى البياض. تلاشى سطوع القمر تدريجياً الى غشاوة بيضاء خفيفة في الحملقة. صرخة عالية مضطربة من المرصد العلوي، ضجيج لأشياء تحطمت، وعندما سقطت اشعة الشمس الجديدة الغريبة من خلال النافذة، وثب المشاهدون خلفاً، وكأن الفرن العالي انفتح امامهم، تحطم الزجاج وسقط الى الداخل شيء ما يشبه الشمس، لكن يزيد فيه خمسين ضعفاً في الحجم والحرارة، اشرق من البحر.

بدأ الدخان ورائحة الطلاء اللاذعة يفوحان من طاولة الالة المعدنية.

صرخ /دافيس/: (ايستوود)، ماذا يكون هذا بحق الشيطان؟

ارتفع بشكل مفاجىء من الشوارع عويل هائل من الرعب والألم، الصراخ السريع لمليون حنجرة في وقت واحد، الضجيج المتواصل للفرار الجماعي المتلاحق. ارصفة الشوارع مخنوقة بالصراع، رعبٌ ـ ناسٌ تتدافع بسرعة في اهتياج عنيف، وعلاوة على الضجيج ارتفع صخب رنين سيارات الاطفاء والعربات.

بدأ دخان يرتفع من مواقع متعددة ادنى (سنترال بارك)، دوّت اجراس الكنائس بجنون. جاء المراقبون مسرعين من الأعلى عبر الدرجات بأصوات وطأة اقدامهم الداوية.

ـ الآن، يجب ان نخرج من هنا، هتف /دانيس/ ماسكاً زوجته من ذراعها ودفعها بسرعة أماماً نحو الباب، هذا

المكان سيحترق حالاً.

صرخ /ايستوود/ محاولاً منعه: توقف، لا تستطيع النزول ضمن ذلك الجمهور المحتشد في الشوارع. لكن /دافيس/ انفصل عن رفاقه وانطلق بسرعة ينزل الدرجات ساحباً زوجته المرتعبه. وقف /ايستودد/ وظهره نحو الباب في الوقت المناسب مانعاً /آليس/ من اللحاق بهم.

ـ لا يوجد شيء في هذا البناء سيحترق، آنسة (وردور)، قال ذلك وهو يهدىء ماستطاع. من الافضل ان نظلّ هنا في الوقت الحاضر. من المؤكد ان الموت سوف يحيط بذلك الفرار الجماعي في الاسفل. اصغِ لذلك فقط.

بدت الحشود في الشارع تتمايل ذهاباً واياباً في موجات متواصلة، وعويلهم، اصوات همجية تشتم وتزعق. كانت الحرارة آنذاك تلسع حتى الجلد تقريباً، لكنهما حرصاً على تجنب الاشعاعات المباشرة، وفي غرفة المختبر طقطقت الالات بصخب واحدة تلو الاخرى. سحابة ضخمة من الدخان الاسود بدأت بالارتفاع فوق المرفأ، هناك، لا شك ان السفن الراسية التهمتها النيران، وشيء ماانفجر بصوت دوّي رهيب. وبعد دقائق قليلة اندلعت ستة حرائق في القسم الادنى من المدينة، ضخامة كتل الدخان تلاشى الى ضباب رقيق في ضوء باهر.

الشمس الجديدة الهائلة، الآن وراء الافق تماماً، وبدا الشرق بأكمله متوهجاً. هدأ الازدحام في الشوارع، امتلأت الارصفة باشكال سوداء ساكنة من رجال ونساء، ومن بقي على قيد الحياة التجأوا الى المنازل القريبة.

ـ سوف افعل اي شيئاً تقوله. قالت ذلك (آليس) التي كانت واهنة، لكنها هادئة بشكل لافت للنظر. حتى تلك اللحظة كان /ايستوود/ متأثراً بروعة شعرها السماوي المتألق بتوهج باهت فوق وجهها الشاحب.

لكن لا نستطيع المكوث هنا، أنستطيع؟

ـ لا، أجاب /ايستوود/، محاولاً تهدئة قواه العقلية في وجه هذه الثورة الفاجعة للطبيعة. انا اعتقد، من الافضل ان ننزل الى الجزء السفلي من البناء.

في الجزء السفلي للبناء سراديب عميقة كانت تستعمل مخزناً للادوات، وهذه ستكون ملاذاً لبعض الوقت. الملاذ جعله يفكر ان السلامة الآنية ربما تكون افضل من أي حياة على الكرة الارضية.

استخدما الدرج الجيد في نزولهما الى الاسفل. بعد ست او سبع مجموعات من الدرجات المتواصلة، بدا الظلام يزداد، وبارتياح بهيج بدا الهواء بارداً تقريباً. والسماء كانت مثقلة بالغيوم مع ظهور لمعان ووهج فضي. صرخة بعيدة من الجنوب الشرقي علت ثم ارتفعت، وقفا على المنبسط الثاني للدرج كي ينظرا من النافذة. بدت مساحة الكتلة السوداء تملأ الفضاء بين البحر والسماء، تزحف باتجاه المدينة، على الارجح من المرفأ.

ـ الاعصار الحلزوني! عمود الماء! (اعصار يتخذ شكل كتلة هواء مدوّمة مثقلة بالضباب والرذاذ ويبدو لعين الناظر أشبه بعمود مائي صلب ينطح السحاب)، دمدم /ايستوود/ مرتعباً. ربما تنبأ به فجأة، تبخرٌ زائد وهواء حار، قادهم العمود الاسود الى الامام يتمايل ويدور، وجاءت العاصفة، وخلفهم الجدار السديمي الذي لا يخترق. شاهد /ايستوود/ عند تقدمها كتلاً غيمية تنيزُ بشكل خاطف بدزينة وميض ـ مثل

البرق، وبعد لحظة، هدير، هدير مروعٌ لمدفع ثقيل. الحصون والسفن الحربية كانت تطلق القذائف من اجل تحطيم العمود المائي، لكن بدون جدوى، واخيراً، المدينة ومحاولة عديمة الجدوى في المقاومة. وبعد لحظة، الحصون والسفن غُمرت بنفس الطريقة.

- أسرعي: هذا البناء سوف يتهار!

هتف (ايستوود).

اندفعا بسرعة ينزلان مجموعة اخرى من الدرجات، سمعا صوت التحطيم بالقوة المهددة التي انقضّت فوق المدنية.

طوفان الماء - كتفريغ صهريج مياه هدرَ فوق الطريق - وبخار المياه حارٌ عند سيلانها على الارض.

تدمير حطم الجدران المنهاره، بناء العلوم الفيزيائية بدا مهشماً بكفٍ جبار. كامل المبنى غاص في الكتلة الهيولية. لن الهيكل الفولاذي المتين لم يتعرض لتحطيم بشكل عملي، وفي الواقع، القسم الاعلى كان مائلاً بشكل بسيط نحو الاسفل على الطوابق السفلى، نازعاً معظم قشر البناء والجص.

كان /ايستوود/ فاقد الصواب عندما انطلق بسرعة الى السطح، لكن عندما عاد صوابه اليه انتظر فوق منبسطة الدرج التي كانت مائلة الى الجانب الخطر. الكتلة المتشابكة من القضبان الفولاذية والعوارض المعدنية كانت معلقة على بعد ياردة فوق رأسه، والعوارض الفولاذية الهائلة اندفعت بسرعة نحو الاسفل بشكل عامودي ماحقةً كل شيء في طريقها. سدّ الحطام مصعد الدرج، كتلة كبيرة من الجص، قرميد وأثاث مُهشم احاط به، استطاع ان ينظر الى الداخل في كل اتجاه من خلال الشق للهيكل المعدني. على بعد ياردة جلست /أليس/ تمسح بشكل آلي الوحل والماء عن وجهها، ومن الوضاح انها لم تتعرض للاذى، ماء فاتر يتدفق من خلال شقوق المبنى المُخرب في السيول الجارفه، لم يكن واضحاً وجود المطر. الثابت، عاصفة جباره تلت ريح دواميه جلبت معها قليلاً من البرودة المعتدله. تحقق /ايستوود/ بلا مبالاة فيما اذا تأذت /أليس/ أم لا، ولم يعرْ اهتماماً، قدرته على الانسجام بدت مشلولة.

- انا لا اعرف. انا ظننت - ظننت نحن الاثنان كنا موتى! غمغمت الفتاة في نوع من الانبهار. ماذا كان ذلك؟ ألم تنتهي؟

اجاب /ايستوود/ ببرود: انا أظن انها البداية فقط. لقد جلبت العاصفة الكثير من الغيوم، والسماوات مثخنة بالغيوم الملبده، لكنها تضيء حرارة بيضاء.

ربما سيأتي المطر قريباً بطوفانات محرقة، واثناء هطوله على هسيس الشوارع سيتبخر ثانية. خلال ثلاث دقائق كل العالم كان مخنوقاً بالضباب الحار، ومن الهدير في الشوارع بدت انهار تجري. انهمار المطر الذي لا يطاق توقف بعد ساعة، وعبقت المدينة بالسديم.

القى /ايستوود/ خلال اندفاع الضباب نظرات عجلى على المباني المنهاره، اكوام ضخمة من الركام، كل الحطام لمدينة القرن العشرين.

أنئذٍ، كالشلالات، انحدرت السيول مرة اخرى، وكأن مياه الكرة الارضية تتقاذف بين البحر والسماء. برجفة، تصادم الانهيارات الصخرية والترابية امتدت داخل /هيدسون/. الجو خانق ومُمْرض، يشبه حمام بخار. الصراع العنيف للتنفس جعل /أليس/ في نوع

من الغيبوبة، وصارت تصرخ برثاء انها سوف تموت. الريح العاتية قادت الرذاذ الحار والبخار من خلال البناء المهدم، حتى بدا من المستحيل على رئتي انسان تستطيعان نزع الحياة من الشبه السائل الذي حلَّ مكان الهواء، لكن الاثنان بقيا على قيد الحياة. بعد ساعات من سفع المطر، خفتَ سرعته، وتفرقت الغيوم، القى /ايستوود/ نظرة خاطفة من منتصف المسافة على السماوات. كانت الشمس، الشمس العجوز، تنظر دامعة. لكن الحرارة الشديدة واللمعان اشارا ان ذلك الجسم الهائل ماكث خلف الغيوم يتوهج. بدا ان المطر سيتوقف، والاصعب، السماء التي تزداد حرارة بسرعة ترسل اشعة بيضاء. ازدادت حرارةالهواء الى حدّ تشبه درجة حرارة الفرن، تبدد الضباب، ارتفعت الغيوم عالياً، وبدت الارض تجفف نفسها فوراً. سقطت الحرارة من الشمسين في وقت واحد حتى اصبح رعب رهيب لايطاق. بدأت رائحة الدخان تخترق الهواء، وميضٌ يلتمع فوق الشوارع، وارتفعت غيوم الضباب الهائل من الخليج. سترَ الركام المكدس للبناء اللاجئين الاثنين من الاشعة الموجهة من الشمس الجديدة، لكن لم يستطيعا الاحتماء من حرارة الهواء القادرة على الاختراق. اخفضت /آليس/ وجهها بين القرميد، تلهث وتنتحب. طرق الدم دماغ / ايستوود /، ومضت امام عينيه الاشياء الغريبة الوهميه. سقط شيئاً فشيئاً في غيبوبات ثقيلة، ثم استيقظ ليدرك كرب النهار. في لحظات تفكيره الصافي كان يفكر ملياً ان ذلك لا يمكن ان يدوم طويلاً ، ثم حاول ان يتذكر ما هي درجة الحرارة التي تسبب الموت. في اقلّ من ساعة، بعد بلل المطر كان ظمآناً ومحموماً، وشعر ان جلده كأنه مسلوخاً عن جسده. هذه الحمى والرعب داما حتى انسياه أبداً معرفة حالة اخرى، لكن اخيراً، احمرّ الغرب وغربت الشمس المتوهجة، غادرت الارض الحميمة عاليا في السموات، وحتى الساعة المألوفة لم يكن يوجد ظلام، مع ان درجة الحرارة منخفضة وطفيفة. وعندما حلّ الليل جلبَ معه حياة تمنح بروده معتدلة، بالرغم من الحرارة التي مازالت شديدة بدت معتدلة عند المقارنة، الاكثر من كل شيء، بدا الظلام اللطيف انه يضع حداً لاضطرابات النهار العنيفة.

- قال /ايستوود/ مستنشقاً انفاساً طويلة: هذا مبهج! ثم أحسّ أن الحياة أعيدت الى عقله وجسمه في الظلام.

- اجابت /أليس:: لن يدوم استمراره. ثم ردد صوتها هدوء رائع خلال الظلام. سوف ترتفع درجة الحرارة مرة اخرى عندما تشرق الشمس بعد بضع ساعات.

اقترح /ايستوود/: ربما يجب ان نجد مكاناً افضل في غضون ذلك، - قبواً عميقاً، او ربما علينا ان ندخل النفق.

- لن يكون صالحاً للاستخدام، هل تفهم؟ إني افكر بجميع الامكانيات. بعد هذا،، ستضيء الشمس الجديدة دائماً، ولن نستطيع التحمّل يوماً اخر. موجة الحر تعبير حول الارض وكأنها تدور في مدار، وخلال ساعات قليلة سيكون التوهج على الكرة الارضية.

جميل جداً نحن الوحيدان الباقيان على قيد الحياة، في /نيويورك/، أو ربما في /أمريكا/.

اذهل /ايستوود/ ان / أليس/ بادرت بالخطوة العقلية الاولى وتكلمت بقوة مقنعة.

- لكن يجب ان يوجد اخرون. قال

/ايستوود/ بعد ان فكرّ لبضع لحظات. ناس اخرون قد وجدوا اماكن وقايه، او الذين يعملون بالتعدين، أو عمال تحت سطح الارض.

سيكونون قد غمروا بمياه الامطار. على اية حال، لن يبقى احد على قيد الحياة في ليلة الغد.

ـ فكر بذلك، تابعت حالمة، منذ الف عام وموجة النار هذه تندفع نحونا، بينما كفًا نحن نتابع حياتنا بسعادة في هذا الكون، وهكذا بلا وعي الكون هالك طيلة الوقت. والآن هذه نهاية الحياة.

ـ قال /ايستوود/ ببطء: انا لا اعلم. ربما تكون نهاية حياة الانسان، لكن يجب ان توجد بعض اشكال الحياة ـ مجهريات ـ ربما كائنات حية لديها القدرة على مقاومة درجات الحرارة العالية. بذرة الحياة سوف تورق على اية حال، وذلك يكون كل شيء. سيبدأ النمو والتطور مرة اخرى من جديد، تبرز انواع جديدة تتلائم مع شروط الحياة المتبدلة. أتمني لو استطيع رؤية المخلوقات التي ستوجد هنا في بضع الف عام. لكن لا استطيع تحقيق ذلك مطلقاً ـ هذه مسألة! صاح بانفعال بعد تردد. أتكون حقيقية؟ ام اخذ الجنون بنا جميعاً؟ أن ذلك يبدو يشبه كثيراً الحلم المزعج، ايضاً. انهمر المطر ثانية عندما كان يتكلم، الارض بخرّته، مع ذلك ليس كضباب النهار الكثيف. هدرت المياه مدة اربع ساعات وتساقطت قطرات نحو الارض بموجات حارة هائلة، حتى أزبدت الشوارع انهاراً صفراء تجرف ركام الابنية المهدمة. قرقعة متواترة، وكأن الارض والصخور تنزلق الى داخل النهر الشرقي، واخيراً انهار جسر (بوكلين) واحدث صوت تحطم حدوي، وسقوطه جعل كل (مانهاتن) تهتز. اندفعت موجة هائلة تشبه الموجة البحرية العارمة بقوة على النهر عند سقوطه. خفت سرعة انهمار المطر ثم توقف بعد ان بدأ القمر من خلال الغيوم يتناثر ضوءاً متألقاً.

بدأ الشرق يزداد اضاءة ، وفي هذا الوقت لم يكن هناك شك عما سيحدث. زحفت /آليس/ على مقربة من /ايستوود/ عندما كان يشع ضوء رمادي على الهواء الرطب.

همست فجأة: قبلني! وأحاطت عنقه بذراعيها.

استطاع ان يشعر بارتجافها. قل انك تحبني، ضمني بين ذراعيك، توجد ساعة واحدة فقط.

ـ قال /ايستوود/ متمتماً: لا تخافي، حاولي ان تقابلي ذلك بشجاعة.

ـ انا لاأخاف ذلك ـ ليس الموت. لكن أنا لم أعش قط. كنت دائماً جبانة وبائسة وخائفة ـ خائفة للكلام ـ وكنت تقريباً ارغب لإجل ما اعانيه، والشقاء، أو أي شيء اسوء لأكون غبية ومغفلة وميتة، هذا الاسلوب كنت اتبعه دائماً. لم أكن اجرؤ قط أن أخبر أحداً ماذا أكون أنا، ماذا أريد.

كنت خائفة طيلة حياتي، لكن الآن لست خائفة. لم تكن لدي حياة ذات معنى أبداً. لم أكن سعيدة أبداً، أما الآن يجب علينا أن نموت معاً!

بدا ذلك لـ /ايستوود/ بكاء للعالم الهالك. امسكها من ذراعيها الرطبين وقبلهما، رفعت وجهها المرتجف اليه.

مضى الفجر قبل ان يدركا ذلك. اصبحت السماء زرقاء، رقائق قرمزية شفافه ترتفع الى الاوج، ازدادت شدة الحرارة اكثر من اي وقت.

قال /ايستوود/ وصوته يرتجف: /آليس/ هذه النهاية.

نظرت اليه، عيناها تشعان برقة مثاليه واشراق، ثم ادرارت وجهها نحو الشرق. هناك توهج نهاية الفجر بلون قرمزي وبرتقالي الذي رغبت عينا إنسان رؤيته دائماً.

عبد العزيز هلال راحلاً

بقلم:

أحمد شوحان

إن ينسى سكان حي.. الجبيلة «بدير الزور أيام مقاومتهم للعدو الفرنسي، ومالاقوه من رشاشات الفرنسيين، فإنهم لن ينسوا موقف ذلك الرجل الطويل الذي كان يجوب شوارع الحي يصيح بأعلى صوته منادياً جيرانه: تعالوا نغلق الشوارع بالحجارة الكبيرة حتى لا تمر مدرعات الفرنسيين. وكان يشمر عن ساعديه المفتولين، وعن ساقيه الغليظتين، وقد أطال شاربيه الغليظين المفتولين كأنهما المغزلين في وجهه.

كانت نظراته كما يقول الجيران حادة، وكانت عيناه تقدح شرراً وغضباً على الفرنسيين، الذين انتهكوا مقدسات المدينة الوادعة.

تلك أوصاف أبي هلال الذي نزل دير الزور في أواسط العشرينيات من هذا القرن، وسكن في هذا الحي النائي، ورغم أنه عاش أكثر من ثلاثين سنة في هذا الحي إلاّ أن جميع معارفه وجيرانه لا يعرفون اسمه او اسم ابيه، ولكنهم جميعاً يعرفون شجاعته في الحي، وبطولته في فلسطين يوم كان برتبة مساعد أول في الجيش عام ١٩٤٨، وما أبلاه في جيش العدو الصهيوني من خسائر، جعلت اليهود ينذرون النذور، ويضعون جائزة مجزية لمن يقتله، وأصبح ضابط شرف، ثم رقّي إلى رتبة نقيب.

كانت عائلته مؤلفة من ثلاثة أطفال هم عبد العزيز، وهلال، وتحسين. استطاع أبوهم أن يربيهم تربية حسنة تفوح منها رائحة الوطنية والحماس الزائد، فكان بيته في بداية الخمسينيات مركزاً لتجمعات شباب حزب البعث العربي الاشتراكي، حيث تُلقى الكلمات والقصائد الوطنية من مكبرات الصوت التي تملأ الحي هتافات عالية تمجّد الأمة العربية، وتدعو شبابها للوحدة العربية الشاملة.

في هذا البيت ترعرع عبد العزيز هلال ، كان اسم ابيه مجهولاً لدى الجميع، لكننا نعرف ان كنية ابيه هي «أبو هلال» لانه كان قد تكنى باسم أبيه. لقد ولد عبد العزيز في عام ١٩٣٣، حيث نشأ مع أمه

بعيداً عن أبيه[1] فلم يختلط بأبناء الحي، ولم يشارك في تلك الاحتفالات غير الرسمية، التي كانت تقام في بيت أبيه، وربما كان يستهجن الكثيرين ممن يشاركون فيها، لأنهم لا يتحلّون بالأدب، ولا يقرؤون الكتب الأدبية التي يعتز بقراءتها، والتي قد نسّقها تنسيقاً أنيقاً في رفّ متواضع داخل «طاقة» اتخذها مكتبة صغيرة له، في تلك الغرفة الصغيرة على السطح والتي تعارف سائر الناس في حي الجبيلة على تسميتها «قيصرية أبي هلال».

كان عبد العزيز قد شذ عن نهج أبيه وأخويه، فقد كان أبوه يحمّسه للوطنية، وهو منهمك في قراءة قصص محمد عبد الحليم عبد الله، وراح أخواه يدخلان تجهيز الفرات بينما دخل عبد العزيز إعدادية الصناعة. وكثيراً ما كان يختلف مع أبيه فكنا نسمع صوت الأب يهدر كالبركان الثائر، بينما لم نسمع كلمة واحدة لعبدالعزيز، وما كان يشكو لأحد من قسوة أبيه الذي كان يعامل عائلته قاطبة معاملة عسكرية قاسية.

كان أنيقاً في ملبسه، جميل المظهر، نظيف الثياب، يسير منذ أن كان يافعاً كأنه شاب، لا يرفع نظره الى السماء، ولا يخفضه الى الأرض. مَن سار خلفه وراقب خطواته رآها متساوية، لا يسلّم على أحد، ولا يعرف من جيرانه أحد، وغالباً ما كان يحمل إحدى القصص في يده اليسرى، ليسلّم بيمناه على معارفه الذين يلتقي بهم في تلك المقهى التي تياسرت في زاوية ذلك الخان الكبير الذي أصبح فيما بعد «كراج حلب» والمقابل لسوق التجار الأوسط في الشارع العام.

لقد أطلقوا على هذه المقهى «قهوة غبّيني» فلا يلتجيء إليها إلاّ من يريد أن يختبيء بها، فهي مقهى ومخبأ لمن أراد أن يدخن سيكارة سراً، وما أصعب التدخين بالنسبة لموقف الأهل والناس من الشباب في تلك الأيام، فهم يقولون عنه: عيب، وحرام.

كان عبد العزيز ينفث دخان سيكارته في تلك المقهى المتواضعة، ويتداول مع جلاّسه أحاديث عن البيئة الاجتماعية في مدينة دير الزور في الاربعينيات وبداية الخمسينيات. ولكن ماذا يفعل هذا الشاب الذي أدّب نفسه بنفسه ان يفعل تجاه مدينة تراكمت عليها سلبيّات قرون طويلة من الضياع والنسيان والتخلف؟

كان يصفها بأنها مدينة المقاهي، وأطلق عنان قلمه فيما بعد عنها فكان يقول: في دير الزور ما بين كل مقهى ومقهى مقهى. وهو لا ينسى الحديث عن مقهاه حتى بعد أن أصبح علماً من أعلام القصة في سورية، فهو يذكر في قصصه جلوسه في مقهى «خبّئني»[2] وما كان يقاسيه من هموم المدينة النائية، التي تنام على عجاج وتصبح على عجاج، حتى سمّاها المهتمون بالثقافةوتاريخ المنطقة مدينة العجاج.

كان أبوه قد تزوج امرأة ثانية، صحيح انها هادئة وعاقلة، ولكنها كانت «ضرّة» والضرة في المثل الفراتي «مُرّة» ولا يمكن ان تعيش مع ضرتها، فكان عبد العزيز مع أمه في بيت بعيد عن بيت أبيه الذي ولد فيه اخواه من ابيه هلال وتحسين الذين كانا يعملان في السياسة بدافع من ابيهما العسكري، بينما كان عبد العزيز مع أمه الحانية يعيش حياة بسيطة، بل معدمة جعلته يفكر أن يعمل «عتالاً» ليقدم لأمه المريضة بداء النقرس، والتي أصبحت مقعدة في ذلك البيت المؤلف من غرفتين مبنيتين بالجص الأسود، ولحاجة الأم المقعدة وولدها عبد العزيز أجّرا الغرفة الثانية لعروسين كان شهر عسلهما في تلك الغرفة المجاورة لغرفة أمه المريضة المقعدة.

وفي احدى الليالي ثار العجاج في مدينة دير الزور فماتت أمه ، فلم يطق الحياة في بيت ابيه، ولم تطب نفسه ان يرى ضرّة امه تمرح في بيت أبيه فغادر دير الزور الى دمشق ليتّخذها وطناً له.

* في دمشق

ذهب الى دمشق وحيداً لا يعرف أحداً، ولا يعرفه فيها أحد، لكنه صمم على مقارعة الحياة، والصبر على شدائدها، وتابع دراسته فنال الشهادة الثانوية عام ١٩٥٢، وعمل في سلك التعليم، وقاسى من هذه المهنة كثيراً، لأنه تنقّل في أماكن كثيرة في سورية، ثم التحق بكلية الحقوق، قضى فيها أربع سنوات وتخرج منها محامياً عام ١٩٦٥. وأخذ يمارس هذه المهنة على مضض. لكنه مارس الأدب مهنة له.

كان قد بدأ كتابة القصة في دمشق منذ بدايات عام ١٩٥٩، وكان منكباً على قراءة قصص مشاهير الكتاب العرب منذ أن كان يافعاً في مسقط رأسه دير الزور. وراح ينشر المقالات والقصص في الصحف السورية واللبنانية(٣) وبعد ان استقر في دمشق في وزارة التربية (المعارف) انتقل فيما بعد الى وزارة التعليم العالي، ثم انتدب للعمل فيما بعد لفترة في المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب في دمشق، ثم أعيد لملاكه(٤).

* مؤلفاته

زاول الاستاذ عبد العزيز هلال كتابة القصة القصيرة والرواية والمسرحية، وكتب الحكاية والخاطرة، وكتب المسلسلات الاذاعية التي اذيعت في اذاعة دمشق في الخمسينيات والستينيات. وبرز اسمه بين كبار كتّاب القصة السورية، إن لم نقل في مقدمتهم. وحيث ان احواله المادية لم تسمح له بطباعة قصصه على نفقته الخاصة، فقد طبع باكورة كتبه في مطابع وزارة الثقافة، بينما طبع ثلاثة كتب أخرى على نفقة اتحاد الكتاب العرب.

وتعتبر هذه الكتب كل ما طبعه في حياته، بينما نشر عشرات القصص في الصحف السورية واللبنانية وخاصة المجلات الادبية اللبنانية. وكتبه التي طبعها هي:

١ - امرأتان في الزحام. مجموعة قصص طبعتها وزارة الثقافة السورية عام ١٩٧٠. في (١٤٨ صفحة) من الحجم الصغير.

٢ - الرجل الأثري. مجموعة قصص طبع بنفقة اتحاد الكتاب العرب عام ١٩٧١.

٣ - من يحب الفقر؟. رواية. طبع بنفقة اتحاد الكتاب العرب عام ١٩٧٤.

٤ - القطار. مسرحية. طبع بنفقة اتحاد الكتاب العرب عام ١٩٧٦(٥).

(وقد أخرج له التلفزيون عدداً من التمثيليات في سوريه وفي بعض دول الخليج العربي)(٦).

ثم انتخب عضواً في المكتب التنفيذي في اتحاد الكتاب العرب بدمشق بعد ان نال العضوية فيه.

وعمل في الصحافة(٧) فكان ينشر المقالات الكثيرة في الصحف السورية.

* وفاته

عانى قبيل وفاته من مرض جعله يعتذر عن حضور الاجتماعات والمؤتمرات، وخلاله توقف عن الكتابة نهائياً. حيث وافاه الأجل المحتوم يوم السبت في ١٩٩٧/١/٢٥ بدمشق ودفن فيها.

رحم الله فقيدنا، وتغمده برحمته، وأجزل ثوابه، وألهم أولاده الصبر والسلوان.

* * *

الهوامش:

١ - كان أبوه قد هجر أمه وتزوج امرأة غيرها فولدت له ولدين هما: هلال وتحسين.

٢ - مجلة العمران - العدد الخاص عن دير الزور - العدد ٣٩ — ٤٠ عام ١٩٧١ وفيها قصته عن العجاج.

٣ - معجم المؤلفين السوريين في القرن العشرين لعبد القادر عياش (ص٥٢٦) طبع دار الفكر.

٤ - معجم المؤلفين السوريين (ص٥٢٦).

٥ - دليل أعضاء اتحاد الكتاب العرب في سورية (ص١١٩٣) طبعة ثالثة ١٩٩٥.

٦ - دليل اعضاء اتحاد الكتاب العرب - طبعة ثانية (ص ٧٣٨) عام ١٩٨٤.

٧ - جريدة الاسبوع الادبي - العدد ٥٤٨ (ص٢٠) تاريخ ١ شباط ١٩٩٧.